ناجي جمعة

صرخة الطَّف

رواية

صرخة الطف

اسم الكتاب: صرخة الطَّف (مقتبسة من السيرة)

اسم الكاتب: ناجي جمعة

نوع العمل: رواية

الرقم الدولي EBIN: 16-1-316-240503

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2024م / 1445هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

داربسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

Darbassma1@gmail.com

المملكة المغربية

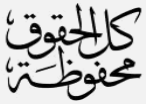

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صـــورة نشـــر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاســترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة ســواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

صرخة الطفل

(مقتبسة من السيرة)

رواية

ناجي جمعة

دار البسمة للنشر الإلكتروني

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى سيد شباب أهل الجنَّة، وشهيد هذه الأمَّة

الروُّح الثائرة التي أشعلت الثورات ضد الباطل:

"الحسين بن علي"

إلى المنافح عن الدين:

"العباس بن علي"

إلى جبل الصمود:

"زينب الكبرى"

أهديهم قبسًا من فيض عطائهم، ونفحة من لطفهم..

راجيًا من الله القَبول، ومنهم الشفاعة والشمول..

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾

قرآن كريم

(سورة آل عمران، آية 169)

"إني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برمًا".

الحسين بن علي

الفصل الأول

ما قبل كربلاء

1

الأرواح نائمة، الأضواء مبعثرة، محاولات لصد الشمس عن البزوغ، الإيمان يتبخر، يخيِّم الرُّعب على أجواء الكوفة، تختنقُ بيد التَّسلُّط، تُسقى بسموم الفتن، تغرقُ في وحل القهر، تسرحُ في شطآن الخيبة، تولولُ من جبروت الحكم، تموتُ من ظلمات الجهل، تئِنُّ من ويلات الفقر.

يستنهض "الحسن بن علي" –سبط رسول الله– همّة أهل الكوفة لمواصلة الجهاد كما كان في عصر أبيه أمير المؤمنين، يأمر "حجر بن عدي الكندي" بإعداد الجيش، يستخلف ابن عمه "المغيرة بن نوفل" على الكوفة، فيخرج بمن معه، يستحثهم على الذهاب إلى النخيلة نصرةً للحق، تنهال الكتائب، بينما يتخلف الغالبية عن القتال.

يعسكر الحسن بالنخيلة عشرة أيام، يتثاقلون، فلا يحضر سوى أربعة آلاف مُقاتل، فيتخذ قرارًا بالعودة إلى الكوفة، يستحثهم ثانية، يزداد عددهم، ثم يبعث رجلًا في أربعة آلاف منهم، يأمره أن يُعسكر في "الأنبار"، يُغري معاوية قائد الجيش بتوليته على كور الشَّام والجزيرة، ثم يرشوه بخمسمائة ألف درهم، يقبض "الكندي" المال، يخون إمامه مع مائتين من المتخاذلين،

يوجه الحسن رجلًا آخر من "مُراد" مكانه في أربعة آلاف، يشتريه معاوية كما فعل بمن قبله!

يتقدم الحسن نحو "النخيلة"، يعهد إلى ابن عمه "عبيد الله بن العباس" بقيادة الجيش بمساندة "قيس بن سعد بن عبادة" و"سعيد بن قيس الهمداني" في اثني عشر ألف مقاتل، يأمرهم أن يسيروا إلى "مسكن" وألا يبدؤوا أتباع معاوية بقتال، وأن يحل "قيس" محل "عبيد الله"، لو قُدِّر له واستُشهد، فإن أُصيب يكون "سعيد" محلَّه.

يرسل معاوية لعبيد الله ألف ألف درهم، يخون الثقة التي أُعطيت له، يدخل في حِمى معاوية ليلًا، بينما يتولى "سعد الأنصاري" القيادة خلفًا له، ثم يخطب فيهم خطبة حماسية يستحثهم فيها على الصمود، ويُخبِر "الحسن" بأمر خيانة عبيد الله، يعتصر قلب الحسن ألمًا على ما آلوا إليه، تستمر الخيانة في المعسكر، يكتب رؤساء الأجناد لمعاوية، لينضموا إلى جيشه مقابل عدم تعرض عوائلهم لويلات الحرب!

يضطر الحسن للبس الدرع ولامة حربه؛ خشية فتك أصحابه به غيلة، ومع ذلك رماه أحدهم بسهم وهو في صلاته!

يحاول معاوية شراء ذمة "قيس" في "مسكن"، فلا ينجح، فيوجه جواسيسه إلى "المدائن"؛ ليشيعوا كذبًا مصالحة "قيس" معه، تنطلي الخدعة على "الخوارج"، يتعهد بعض الرؤساء المتخاذلين لمعاوية باغتيال الحسن أو تسليمه لو شاء. تصل أنباء فرار الخاصة من قواده عن جيشه، وتبعهم آلاف الجنود!

يصعد "الحسن" منبر الكوفة، يحثهم على الوحدة، يستغل الخوارج الموقف، يشيعون أنه يريد الصلح مع معاوية، يُكفِّرونه، يهجمون على فسطاطه، يأخذون مُصلَّاه من تحته، يسير الحسن إلى "مظلم ساباط"، يبدر إليه "الجرَّاح بن سنان الأسدي"، يقترب من الحسن، يرفع صوته مزلزلًا:

- الله أكبر، أَشْرَكْت يا حسن كما أشرك أبوك من قبل!

يَطعَنُ الحسنَ في فخذه حتى تبلغ طعنته العظم، يعتنقان، يخرَّان جميعًا إلى الأرض، يتقدم عبد الله الطائي، ينزع المغول من يد الأسدي، يكب عليه ظبيان يقطع أنفه، يشدخون وجهه فيهلك.

يُحْمَل "الحسن" على سرير إلى "المدائن"، فينزل على "سعد بن مسعود الثقفي" عامل أمير المؤمنين عليها، يأتيه بطبيب، فيتعالج من جرحه حتى يبرأ.

في ظل انهيار الجيش، وتزايد الخوارج، وتخاذل الأتباع، وانتشار مرض الشك، بعد حرب استمرت ستة أشهر، يضطر الحَسن في سنة 41 هـ إلى "الصلح" مع معاوية، على أن تعود الخلافة إليه بعد موته.

يعقد موالي آل البيت في العراق اجتماعًا مهمًّا في أطراف المدينة يحضره عِلْية القوم، وأهل الرأي والمشورة، يتفقون على مذكرة شفهية فيها إدانة لأفعال معاوية، يثبتون عليه نكثه الصلح مع الحسن، وَسَنِّه سب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب على منابر الجمعة، وأمره بهدم دور الموالين، وممارسته الترهيب والتجويع، وشراء الضمائر، وتحويله الخلافة الإسلامية إلى ملك عضوض، وأخيرًا أخذه البيعة لابنه يزيد.

تتعالى الأصوات بالدعوة إلى الثورة المسلحة عليه، يتفقون على إرسال وفدٍ إلى المدينة المنوَّرة، وما هي إلا أيام حتى يلامسوا أرضها الشريفة، يلتقون بالحسن "المجتبى"، فيعرضون عليه مثالب معاوية، ثم يدعونه للثورة، إلا أنه يسْتمهلهم ما دام هناك صلح بينهما، فلا ثورة، إلا أنْ يموت!

يتَّجهون إلى "الحسين بن علي"، يرد عليهم بالتأكيد على رأي أخيه "إمام عصره":

- قد كان صُلحٌ، وكانت بيعةً كنتُ لها كارهًا، فانتظروا ما دام هذا الرجلُ حيًّا، فإن يهلك نظرنا ونظرتم.

تتكرر الرسائل منهم، يتكرر موقف الحسين الرافض للنكث بالعهد، يدعوهم للصبر والتريث وانتظار الفرج، ينتظرون هلاكه بلهفة؛ ليثوروا على ابنه لو قدر له الوصول إلى سدَّة الحكم، ويرجعوا الخلافة للبيت العلوي.

يخاف معاوية من ثورة مضادة يقودها أتباع الحسن، فيطلب من ملك الرُّوم سُمًّا فتَّاكًا، يغري زوجة الحسن "جعدة بنت الأشعث بن قيس" بتزويجها من ابنه يزيد، يتعهد لها بدفع مائة ألف درهم إن هي دسَّت له ذلك السم، توافق على طلبه، ثم تختار يوما "قائظًا" شديد الحرارة كان الحسن فيه صائمًا، تضع له السُّم في لبن، تُدِيفه بالعسل حتى تُخفي جريمتها، تأتي به في وجبة الإفطار، يتناول الإمام منها جرعات، يشعر بأن أمعاءه تُقَطَّع بالسكاكين والأمواس، يلتفت لها وهو يصارع الألم:

- قتلتني يا عدوة الله.. قتلك الله، وأي والله لا تصيبين مني خَلَفًا، ولقد غرَّك وسخر بك، فالله مُخزيه ومُخزيك.

تصك أذنيها بأصابعها، تسارع لإغلاق الدار عليه، تتركه يتلوى من حرارة السُّم، يتقلَّب يمينًا وشمالًا، لا يجد مَنْ يعالجه، يقوم من مكانه يستند إلى

الجدار، يمضي لغرفة أخته زينب، يطرق الباب بيد مرتعشة وجبينه ينضح عرقًا، تخرج له الجارية يسألها أن تخبر أخته بأن تأتي له، تسارع إليه، وما أن تراه "زينب" يتلوى من الألم، ترمي بنفسها عليه، تضمه إلى قلبها المحترق، تمسكه بلطف، ثم تضعه على فراش المرض بحنان، يطلب منها إخبار أخيه الحسين بما جرى عليه، فيسارع لرؤية أخيه.

كان يتجرع الآلام، تتفتت كبده، يقذف قطعًا من أحشائه في طست، يخفيه الحسين عن عين أخته زينب، لكن سرعان ما تكتشفه، فتصرُخ حزنًا عليه، يقرأ الحسين أورادًا تربط على قلبها المكسور.

يشعر الحسن بقرب أجله، فيوصى أخاه بأن لا تُراق محجمة من دمٍ في تشييعه، وفي السابع من صفر سنة 50 للهجرة يُستشهَد عن ثمانية وأربعين سنة، فيُؤخذ ليدفن بجنب جدِّه رسول الله (ص)، تُرمى الجنازة بسبعين سهمًا، فيرفع شباب بني هاشم سيوفهم، يأمرهم "الحسين" بإغمادها تنفيذًا لوصية أخيه، ثم يأخذ جثمانه إلى البقيع، ويدفن بجانب جدتهم "فاطمة بنت أسد".

يدعو معاوية أهل الشام إلى بيعة يزيد بولاية العهد من بعده، يبايعونه، ثم يكتب لمروان بن الحكم واليه على المدينة يأمره بأخذ البيعة لابنه، فيسارع إلى تنفيذ أوامره، ويخطب فيهم:

- إن أمير المؤمنين رأى أن يستخلف عليكم ولده يزيد سُنة الخلفاء الراشدين.

يرفع عبد الرحمن بن أبي بكر صوته مستنكرًا:

- بل سُنَّة كسرى وقيصر، إن الشيخين لم يجعلاها في أولادهما، ولا في أحد من أهل بيتهما.

في عام 51 للهجرة يشد معاوية الرِّحال إلى المدينة المنورة، يجتمع بالإمام الحسين وابن عباس، يعرض عليهما البيعة لابنه، فينبري له الإمام بخطبة يستنكر فيها المبالغة في نعت يزيد، الذي دل على نفسه بنفسه، ودعاه ألا يخرج من هذه الدنيا بوزر توليته الخلافة لمن لا يستحقها، وأن يعيد الحقَّ لأصحابه، يُذهل معاوية من جرأته، ثم يقول مشدوها:

- ما هذا يا بن عباس؟

- لعمر الله إنَّها لذرِّية رسول الله (ص)!

يبعث معاوية لـ"عبد الله بن عمر"، ويحذره من شق عصا المسلمين، ثم يدعوه لبيعة ابنه يزيد، فيستنكر ابن عمر أن يقوم بذلك. ثم يرسل في طلب "عبد الرحمن بن أبي بكر"، الذي يرفض هو الآخر البيعة ليزيد، يأمره بالرجوع للشورى، أما ابن الزبير فيقول له بتشنج:

- إن كنت مللت الإمارة فاعتزلها، وهلمَّ ابنك فلنبايعه، فإذا بايعنا ابنك لأيّكما نسمع ونطيع؟!

يخرج معاوية ويصعد المنبر، يدَّعي أن الثلاثة بايعوا يزيد، فيصرخ أهل الشام في دعم له:

- والله لا نرضى حتى يبايعوا على رؤوس الأشهاد، وإلا ضربنا أعناقهم.

يحذرهم معاوية من استخدام العنف مع المعارضين لتنصيب يزيد خليفة، يستخدم دهاءً ومكرًا؛ ليدفع عنه تهمة القتل لمناوئيه.

يثير معاوية البلبلة في المدينة، فمنهم من يقول بايعوا، ومنهم من استنكر ذلك، ينقسم الناس بين رافضين للواقع المفروض عليهم بحد السيف، وبين خانعين مُسَلِّمين بالأمر الواقع والسياسة الجديدة، التي اتخذت منهجًا جديدًا في حرف الأمة عن قيادتها الشرعية المتمثلة في الأئمة المعصومين.

2

يرسل "مروان بن الحكم" والي معاوية على المدينة ومكة والطائف إليه كتابًا جاء فيه:

"أما بعد فقد كَثُر اختلاف الناس إلى الحسين، والله إني لأرى لكم منه يومًا عصيبًا".

فيرد معاوية عليه بكتاب جاء فيه:

"أما بعد فقد بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه من أمر الحسين، فإياك أن تعرض للحسين في شيء، واترك حُسينًا ما تركك، فإنا لا نريد أن نُعرض له بشيء ما وفَّى بيعتنا ولم ينازعنا سلطاننا، فاكمن عليه ما لم يُبدِ لك صفحته والسلام".

يعترض "حجر بن عدي" على تنصيب يزيد، وكان من أصحاب علي بن أبي طالب الذين شهدوا الجمل وصفين، فيسارع "عبيد الله بن زياد"، واليه على البصرة، باعتقاله، يرسله إلى دمشق، يعقد معاوية محاكمة صورية، ثم يأمر بقتله صبرًا في "مرج عذراء"، يزداد حنق الناس على بني أمية، تلتقي أم المؤمنين "عائشة" بمعاوية في طريقها إلى الحج، تستنكر عليه فعله قائلة:

- أقتلت حجرًا وأصحابه، فأين عزب حلمك عنهم؟ أما إنّي سمعت رسول الله (ص) يقول: "يقتل بمرج عذراء نفر يغضب لهم أهل السماوات".
فيقول لها مراوغًا:

- لم يحضرني رجل رشيد يا أم المؤمنين.
يعمد معاوية إلى قتل الصحابي "عمرو بن الحمق الخزاعي" قرب الموصل، يفصل رأسه عن جسده، ثم يأمرهم بأن يُحمل على رأس رمح، كان أول رأس يُطاف به في الإسلام، وكان قد اعتقل زوجته، فجِيء بها ورمى رأسه في حضنها!

يلحق معاوية مجهول الأب "زياد بن أبيه" ابن سمية المولود على فراش عبيد ثقيف بأبي سفيان، في مخالفة صريحة لقول الرسول (ص): "الولد للفراش وللعاهر الحجر"، ولم يكتفِ بذلك، بل يسلِّطه على أهل العراق يسومهم سوء العذاب.

يحذر معاوية "الحسين" من شق عصا المسلمين! يعترض عليه، ثم يكتب له كتابًا غليظًا يُعدِّد أفعاله المشينة، ومما جاء فيه:

"إني لا أعلم فتنةً أعظم على هذه الأمة من ولايتك عليها..."

3

في سنة 58 للهجرة يحج الحسين إلى مكة المكرمة، يعقد مؤتمرًا عامًّا في منى يحضره أكثر من سبعمائة رجل من المهاجرين والأنصار، ثم يقوم فيهم خطيبًا يعدد مثالب معاوية، ولم يترك شيئًا مما جاء في فضل آل البيت إلا ذكره، فيردد الصحابة:

- "اللهم نعم قد سمعنا وشهدنا".

يكتب معاوية إلى عماله بتقريظ يزيد ومدحه، ثم يطلب منهم إيفاد الوفود لبيعته، ليطمئن على تنصيبه قبل رحيله.

في منتصف رجب من عام 60 للهجرة يدبُّ المرض في جسم معاوية، يهزُل ويحتضر، وكان يزيد آنذاك خارج دمشق، فيدعو معاوية الضحاك بن قيس الفهري، ومسلم بن عقبة، يُبلِّغهم وصيته بتحذيره من أربعة "الحسين بن علي"، و"عبد الرحمن بن أبي بكر"، و"عبد الله بن الزبير"، و"عبد الله بن عمر".

يموت معاوية، يشرع الضحاك بتجهيزه والصلاة عليه ودفنه، ثم يرسل في طلب يزيد، الذي عاد بعد دفن أبيه بثلاثة أيام، يستقبله الضحاك مع

بعض أهل الشام، يزور قبر أبيه معاوية، ثم يقف خطيبا راثيًا أباه مبينًا نهجه في الحكم، ثم يقف بولع للتهنئة والتعزية.

يدخل يزيد وأمه "ميسون بنت بحدلٍ الكلبي" دارهم، ولا يخرج إلا بعد ثلاثة أيام، وهو يرتدي عِمَّةً سوداء، يتقلَّد بسيف، ثم يصعد المنبر، ويسرد عليهم كابوسًا مرعبًا ألمَّ به، يقول لهم مرعوبًا:

- لقد رأيت كأنَّ بيني وبين أهل العراق نهرًا من دم عبيط!

يواصل خطبته، يبيِّن سياسة حكمه، فيقول له أهل الشام خانعين:

- "يا أمير المؤمنين امضِ بنا حيث شئت... فنحن بين يديك، معك سُيوفنا التي عرفها أهل العراق".

يشكرهم يزيد، ثم يُفرِّق عليهم أموالًا كثيرة، ويكتب إلى العمال يخبرهم بهلاك معاوية، ويقرهم في عملهم، ثم يضم لعبيد الله بن زياد ولاية "الكوفة" مضافًا إلى ولايته على "البصرة" بإشارة من "سرجون" مولى معاوية.

يكتب يزيد رسالة إلى "الوليد بن عتبة" والي المدينة، يأمره بأخذ البيعة من الناس عامة، ثم يكتب في طيِّه صحيفة صغيرة كأنَّها أذن فأرة جاء فيها:

"أما بعد، فخُذ الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذًا شديدًا ليس فيه رخصة، فمن يأبَ عليك منهم فاضرب عنقه، وابعث إليَّ برأسه... والسلام".

يقرأها الوليد وكفَّاه ترتجفان، ثم يبعث إلى مروان بن الحكم ليلًا، فيحضره، يقرأ عليه كتاب يزيد، ونعى معاوية إليه، يستشير مروان في أخذ البيعة من أولئك الأربعة، فيقول له مروان بصلافة:

- الرأي أن تحضرهم في هذه الساعة، وتأخذ منهم البيعة!

4

في ليلة السبت السابع والعشرين من رجب من سنة ستين للهجرة، كان القمرُ يرسل سِهامَهُ الضعيفة البيضاء لتشقَّ سواد الليل، روحه معلَّقة بباريها، تهبط عليه لحظات من الأنُس والسُّكون، يسرح في ملكوت الله، كان يرفع يديه بخشوع، يتمتم بكلمات تخترق الحجب السَّبعة، جوارحه تسير معه، عقله يدور معه حيثما دار، يصافح روح جدِّه المصطفى، يقطع عليه أحدهم خلوته التي لم تستمر سوى لحظات:

- إني رسول إليكم من والي المدينة.. تفضل يا أبا عبد الله.

كان ابن الزبير ينظر إليه بحذر، يتداخله شك ورهبة، يلتفت إلى "الحسين بن علي":

- ما تراه بعث إلينا في هذه الساعة المتأخرة، ونحن في غلس الليل البهيم؟
- أظنُّ أنَّ معاوية قد مات، ولم يأتِ إلا لطلب البيعة ليزيد قبل أن يتفشى الخبر بين الناس.

يستوي "عبد الله بن الزبير" واقفًا، وكان نحيفًا، يمشي بضع خطوات إلى الأمام، ثم ينكص إلى الخلف، يضع يده على بقايا لحيته الشهباء:

- وأنا ما أظن غير ذلك، فكيف نصنع؟

ينظر "عبد الرحمن بن أبي بكر" إلى "عبد الله بن عمر" بوَجَل، ترتعد فرائصه، تنكَسِف ألوانه:

- ندخل بيوتنا ونغلق علينا أبوابنا.

يرفع ابن الزبير عقيرته:

- والله ما أبايع يزيدَ أبدًا.

يقف الحسين بثبات، يسلِّم بكلتا يديه على ضريح النبي (ص)، تفوح من عينيه الشَّجاعة:

- أنا لا بُدَّ لي من الدخول على الوليد السَّاعة؛ لأنظر ما يقول.

ينظر ابن الزبير من طرف عينيه إلى الحسين:

- فإني أخاف عليك إذا دخلت عليه.

تنبلج أساريره، يرسم بسمة واثقة:

- أنا لا أخاف من مخلوق.. لا آتيه إلَّا وأنا قادرٌ على الامتناع؛ لاتِّقاء غدره.

يقترب منه ابن الزبير في حيرة:

- وكيف ستصنع؟

الحسين في هيبة ووقار:

- أجمع فتياني السَّاعة، ثم أمشي إليه، أجلسهم خلف الباب، وأدخل عليه.

يعود الحسين إلى البيت، يُسلِّم على أهل بيته، يقترب من ابنته رقية، يضمها إلى صدره الحنون، يطبع قبلة على عنق طفله عبد الله الرضيع، يشرب غرفة من الماء، يصافح زوجته الرَّباب ويطمئنها على نفسه، كانت ترى في عينيه تهديدًا، يرسل أحد الفتيان لاستدعاء ثلة من شباب بني هاشم الأشداء، يأتون في الحال، يدعوهم لحمل أسلحتهم، يُبيِّن لهم خطورة الموقف، يأمرهم بالوقوف خلف الباب، ثم يلتفت إليهم في شموخ:

- إذا سمعتم صوتي قد علا، فادخلوا جميعًا كرجلٍ واحد؛ لتمنعوه عنِّي.

سار الحسين كالشمس الوضاءة في عتمة الليل تَخفُّها النُّجوم، عندما وقف على الباب قام الوليد فاستقبله، كان عنده مروان بن الحكم، الذي كان يبتسم ابتسامة صفراء دون أن يردَّ عليه السلام!

يقرأ الوليد عليه كتاب يزيد، ثم يدعو الحسين للبيعة، ينظر له الحسين بعينٍ فاحِصة:

- إني لا أراك تقنع مني البيعة سِرًّا، فإذا خرجت للناس غدًا بايعناك معهم جهرًا.

يرد الوليد وهو فاغر فاه:

- أجل نفعل.

ينظر إليه الحسين، وهو يهمُّ بالانصراف:

- إذن نصبح وتصبحون.

يصدر الوليد آهة، يقول متوجِّسًا:

- انصرف على اسم الله راشدًا، ولتأتِنا مع الجماعة.

كان مروان ينظر والشرر يتطاير من عينيه، ينفث الشيطان على لسانه، فيخاطب الوليد بتحريض سافر:

- أيها الأمير، لئن خرج الساعة ولم يبايعك ما قدرت على مثلها، حتى تكثر بينكم القتلى.

يفتح الوليد عينيه على مصراعيها ويتساءل بذهول:

- وماذا أفعل يا بن الحكم؟

- احبس الرَّجل ولا يخرج حتى يبايع، أو تضرب عنقه!

يثب الحسين كالأسد الغضبان:

- أنت يا بن الزرقاء تقتلني أم هو؟ كذبت والله وأثمت.

يقترب من الوليد، ثم يخطب بعنفوان:

- إنا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الرَّحمة، بنا فتح الله وبنا يختم، (وهو) فاسق، قاتل النفس المحترمة... ومثلي لا يبايع مثله.

يرتفع صوت الحسين، فيهجم بنو هاشم، يتقدَّمهم أخوه العباس شاهرًا سيفه، يدعوه الحسين لضمِّه ليومٍ سيأتي لا محالة.

يمشي الحسين نحو الباب، والوليد ومروان ينظران إليه برعب، وعندما يتأكد من انصرافه، يقترب من الوليد في وجوم:

- عصيتني، لا والله لا يُمكِّنك من نفسه أبدًا.

تنتفخ أوداج الوليد:

- ويحك يا مروان، تختار لي ما فيه هلاك ديني ودنياي.. إني أظن أن امرءًا يُحاسب بدم الحسين؛ لخفيف الميزان.

يبلع ريقه بصعوبة، ويقول بتهكُّم:

- أصبت يا أمير.

5

يعود الحسين إلى بيته في تلك الليلة الليلاء وهو يعلم خبثهم، لكنه لم يتزحزح عن موقفه، ولم يخالطه الخوف، بل كانت نفسه في سكينة وطمأنينة، راح يسبح الله ويقدسه، يهيم في صفاته وأسمائه، يتأمَّل رحمته وانتقامه، كانت لحظات عُرفانية قضاها يُناجي ربَّه أن يغفر لأُمَّة جده محمد، وأن يرفع مقامه ومنزلته إليه، ليعرفوا قدره، وقدر أبيه الذي خذلوه.

في آخر ساعة من نهار السبت، أصرَّ الوليد على أخذ البيعة من الحسين، يبعث له بعض حاشيته، إلا أنه تخلَّص منهم بذكاء، وقال في جوابهم:

- أصبحوا ثم ترون ونرى.

فلما حلَّ الصباح التقى بمروان، فطلب من الحسين البيعة قائلًا بصلافة وغرور:

- إني آمرك ببيعة يزيد، فإنه خير لك في دينك ودنياك.

فينظر له الحسين بتقزز:

- إنا لله وإنا إليه راجعون، وعلى الإسلام السَّلام إذا ابتُليت الأمة براعٍ مثل يزيد.

يصرُّ مروان عليه، فينظر له الحسين بغضب:

- اغرب عني. إنا من بيت العز والطَّهارة، ستلقى جدي وسوف يسألك عن حقي، فما أنت قائل؟!

يَسوَدُّ وجهه، ولم يُحِرْ جوابًا، فانصرف.

ولعلَّه لم يلتقِ به، بل خرج ذاك الثعلب يجر خيبته نحو مكة المكرمة، ولما أطلت الشمس، سرَّح الوليد في أثره بعض الشرطة ليرجعوه، لكنهم عادوا بِخُفَّيْ حُنين.

في مساء اليوم التالي يزور الحسين قبر جدِّه مودِّعًا، يقف عليه مستعيذًا من أولئك الأرجاس، شاكيًا إليه انقلابهم على أعقابهم، وخذلانهم له، فقد فرقوا بين القرآن والعترة الطاهرة، ثم يهوي على القبر يقبله، ويقول في تحسُّر عليهم:

- السلام عليك يا جدَّاه، أنا الحسين بن فاطمة، فرخُك وابن فرختك، وسبطك الذي خلَّفتني في أُمَّتك، فاشهد عليهم يا نبي الله أنَّهم خذلوني وضيَّعوني، ولم يحفظوني، وهذه شكواي إليك حتى ألقاك.

كان الحسين هائمًا في جمال الله وجلاله، وفي تلك اللحظة ازداد شعوره بتجليات الربوبية، فانقطع إليه راكعًا وساجدًا.

وهكذا عاد الحسين في الليلة التالية، واختلى بقبر جدِّه ليختار له ما يرضيه ويرضي رسوله، ثم أخذه البكاء، وفي لحظة صفاء من ساعة السَّحر غفت عيناه، فرأى رسول الله في الحلم، وقد أقبل عليه في كتيبة من الملائكة عن يمينه وشماله وبين يديه، فضمَّه إلى صدره، وقبَّل ما بين عينيه، وقال له بحُرقة:

- حبيبي يا حسين، كأنِّي أراك عن قريب مُرمَّلًا بدمائك مذبوحًا بأرض كرب وبلاء من عصابةٍ من أمتي، وأنت مع ذلك عطشان لا تُسقى... وهم مع ذلك يرجون شفاعتي يوم القيامة.. يا حسين إن أباك وأمك واخاك.. مشتاقون إليك، وإن لك في الجنان لدرجات لن تنالها إلا بالشَّهادة.

ينظر له بمودَّة، ويقول بشوق:

- خذني إليك وأدخلني معك في قبرك.

- بل ستبقى لترزق الشَّهادة؛ لتكون معنا في الجنَّة.

صحا الحسين من نومه مستبشرًا فزعًا، فلما قصَّ رؤياه على أهل بيته اغتموا وبكوا، لكنه سمع أحدهم ينظر لآخر، وهو يقول:

- والله برغم حزني عليه، إلا أني آمل له أن يكون شهيد هذه الأمة.

يتجَّه الحسين لقبر أمِّه فاطمة، فتمسح عليه بأضلاعها المكسورة، ثم يودِّع أخاه الحسن فيعصر كبده المسمومة، ولما أراد توديع أخيه لأبيه محمد بن الحنفية قال له بود:

- يا أخي أنت أحب النَّاس إليَّ.. تنحَّ ببيعتك عن يزيد، وعن الأمصار ما استطعت.

- فأين أنزل يا أخي؟

- تنزل مكَّة، وإذا لم تطمئن اذهب إلى بلاد اليمن، وإذا لم تشعُر بالسكينة الحقْ بالرِّمال وشعب الجبال، وتنقَّل من بلد إلى بلد.

ينظر له الحسين بشفقة، ويقول بحزم:

- يا أخي، جزاك الله خيرًا، أنا عازم على الخروج إلى مكَّة، أما أنت فلا عليك أن تقيم في المدينة، فتكون لي عيْنًا عليهم.

"إني لم أخرج أشرًا ولا بطرًا ولا ظالمًا ولا مفسدًا، وإنَّما خرجت لطلب الإصلاح في أمَّةِ جدِّي محمد (ص) وأبي علِي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن ردَّ عليَّ هذا، أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق، وهو خير الحاكمين".

يأتي إليه من يدعوه للصلح مع يزيد، ويحذره من القتال، إلا أنه يأبى عليهم ذلك، فتلك الرُّوح العظيمة لا تقبل الهزيمة.

ثم أقبلت نساء بني هاشم يودعنه وقد خنقتهم العبرة، وشلتهم الحسرة، وجاءت إحدى عماته تبكي وأنشدت:

وإنَّ قتيل الطَّف من آل هاشمٍ أذلَّ رقـابًا من قُريش فـذلَّـتِ

6

خرج الحسين إلى مكَّة المكرَّمة بصحبة أهل بيته ما عدا أخاه محمد بن الحنفية، وعبد الله بن جعفر زوج أخته السيدة زينب، وعبد الله بن عباس، وعمر الأطرَف، وفي الطريق لقيه عبد الله بن مطيع العدوي، فقال له بتودد:

- جُعلت فداك أين تريد؟
- أما الآن فمكة، وأمَّا بعد ذلك فأستخير الله في أمري.

نظر له ابن مطيع، وكأنَّه أحرص عليه من نفسه:

- خار الله لك، إياك والكوفة التي قُتِل فيها أبوك وأخوك، والزم الحرم، فأنت سيد العرب.. ولا تفارقه، فوالله لئن هلكت لتُسترقنَّ بعدك.

نظر له الحسين بابتسامة واثقة:

- هداك الله يا رجل.. أستودعك الخبير العليم.

أخذ الحسين يجدُّ في السير، يقطع الفيافي والقفار، حتى تراءت له جبال مكَّة، ومن بينها جبل أبي قبيس الذي كان يقف طودًا شامخًا يطل على

الكعبة، كان يتلو واثقاً بالهداية لصحة قراره المصيري: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: 22].

7

يحلُّ الحسين في الثالث من شعبان بمكة في دار العباس بن عبد المطلب، أو شِعب عليٍّ، ينثال عليه المعتمرون وغيرهم، فيغار ابن الزبير منه، فيكرر اقتراحه عليه أن يخرج إلى العراق؛ ليتخلص من منافس له جذب الناس إليه من كل الآفاق، كما تنجذب النحلة إلى رحيق الزهور.

يزور الحسين قبر جدَّته خديجة بنت خويلد، ثم يرجع إلى البيت، يكتب إلى أشراف البصرة ورؤساء الأخماس يدعوهم لبيعته، يرسل توكيلًا مع "سليمان بن رزين"؛ ليأخذ منهم البيعة نيابة عنه، ويسلَّمه رسالة جاء فيها " إن السُّنة قد أُميتت، وإنَّ البدعة قد أُحييت، وإن تسمعوا قولي، وتطيعوا أمري أهدكم سبيل الرَّشاد..."

كان الرسول يجدُّ السير بكل ما أوتي من قوة، فلمَّا وصل، سلَّم رسالته "المنذر بن الجارود" صهر عبيد الله بن زياد، والي البصرة يومها، فيشى به لديه، فيأمر ذاك الوحش بقتل الرسول وصلبه، وعندما وصلت الرسالة "الأحنف بن قيس" رد برسالة يقول فيها:

" أما بعد، فاصبر إن وعد الله حق، ولا يستخفنَّك الذين لا يوقنون".

أما "زيد بن مسعود النَّهشلي"، فجمع بني تميم، وبيَّن لهم مثالب يزيد وأبيه، وختم خطبته في قومه بدعوتهم للالتفاف حول الحسين، ومما جاء في خطبته:

- "هذا الحسين بن علي وابن رسول الله ذو الشرف الأصيل، والرأي الأثيل، له فضل لا يُوصف، وعلم لا ينزف، وهو أولى بهذا الأمر، لسابقته وسِنِّه وقدمه وقرابته.. وها أنا ذا لبست للحرب لامتها، وادرعت لها بدرعها، من لم يُقتل يمت".

فقام أنصاره من بني حنظلة، فقالوا:

- يا أبا خالد، نحن نُبل كنانتك، وفُرسان عشيرتك، إن رميت بنا أصبت... لا تخوض –والله– غمرة إلا خضناها.

ثم قام أنصاره من بني عامر بن تميم، وبني سعد بن زيد فتكلموا بمثل قولهم، فقال ابن مسعود النهشلي:

- والله يا بني سعد، لئن فعلتموها لا رفع الله السيف عنكم أبدًا، ولا زال سيفكم فيكم.

ثم كتب رسالة إلى الحسين، ومما جاء فيها:

"أنتم حجة الله على خلقه، ووديعته في أرضه.. فأقدِم سعدتَ بأسعد طائر، فقد ذللت لك أعناق بني تميم، وتركتهم أشد تتابعًا في طاعتك من الإبل الظماء لورود الماء يوم خمسها".

نجح "يزيد بن نبيط"، في جمع خمسة شجعان ساروا لنصرة الحسين، حتى لحقوا به في مكة المكرمة وضموا رحالهم معه، كان يسير بخوف من أصحاب ابن زياد، لكنَّه لم يتراجع، وسلك طرقًا أخرى على غير الجادة.

وفي تلك الأثناء قام الحسين بإرسال رسالة غليظة إلى محمد بن الحنفية؛ ليوصلها لعموم بني هاشم جاء فيها:

"أمَّا بعد، فإنَّه من لحق بي منكم استشهد، ومن لم يلحق بي لم يبلغ الفتح والسلام".

أرسل ابن عمرو بن سعيد الأشدق رسالة إلى يزيد يحذره من اجتماع الناس، والتفافهم حول الحسين، يصله الكتاب تنكسف ألوانه، يشعر برعب واضطراب، فيكتب رسالة لعبد الله بن عباس، يتوعد فيها الحسين وابن الزبير:

"أما بعد، فإن ابن عمك حسينًا، وعدو الله ابن الزبير التويا ببيعتي ولحقا بمكة، مرصدين للفتنة، معرِّضين أنفسهما للهلكة، فأما ابن الزبير فإنه

صريع الفناء، وقتيل الأعداء غدًا، وأما الحسين فقد أحببت الإعذار إليكم مما كان منه.. وأنت زعيم أهل بيتك، فالقه وارددده عن الفتنة".

فيجيبه ابن عباس على رسالته برسالة، ومما جاء فيها:

"أما ابن الزبير فرجل منقطع عنا برأيه وهواه.. وأما الحسين فترك المدينة لمضايقة عمالك له، ولن أدع النصيحة فيما يجمع الله به الكلمة.. فاتَّقِ الله ولا تُرِد لمسلم غائلة".

يجتمع وجهاء الكوفة في دار "سليمان بن صرد الخُزاعي"، يتَّفقُون على نصرة الحسين، ويبعثون برسالة مع عبد الله بن مسمع الهمداني وعبد الله بن وال، وكان من فقهاء الكوفة وعُبَّادها، ثم يرسلون بعد يومين قيس بن مسهر الصيداوي وآخرين، وبعد يومين آخرين هاني بن هاني السبيعي، وسعيد بن عبد الله الحنفي، وما هي إلا أيام حتى تصل الحسين أكثر من 12 ألف رسالة، فيردُّ عليهم برسالة، ومما جاء فيها:

"إني باعث إليكم أخي وابن عمِّي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل.. فإن كتب إليَّ أنه قد اجتمع رأي ملئكم.. فإنِّي أقدم إليكم إن شاء الله".

8

يصلي الحسين ركعتين بين الركن والمقام، يستخير الله في توجيه رسول للكوفة، ثم يدعو ابن عمه "مسلم بن عقيل"، ويقول له:

- امضِ على بركة الله، وانزل عند أوثق أهلها، وادع النَّاس إلى طاعتي، فإن رأيتهم مجتمعين على بيعتي فعجِّل عليَّ الخبر.

يتعانقان بحرارة، تنزل دموعها على خدَّيهما، ثم يكتب له كتابًا يعدهم بقبول دعوتهم لقدومه، ثم يدعوه بالمسير نحو الكوفة، ويبعث برفقته "قيس بن مسهَّر الصيداوي" وآخرين.

يغادر "مسلم" مكة في ليلة النِّصف من شهر رمضان، بينما كانوا يتبادلون التهاني بذكرى مولد ابن عمه الحسن بن علي، يسير برفقة أصحابه الثلاثة، يستأجرون دليلين؛ لكنهما يتوهان ويموتان عطشًا في ربوع الصحراء!

يُشعِر "مسلم" ابنَ عمه الحسين بما حدث، ثم ينزل بماء لطي، فيرى صيَّادا يرمي ظبيًا، فيصرعه، فيقول لأصحابه:

- نقتل عدوَّنا إن شاء الله!

كانوا يحدُّون في المسير، وفي الخامس من شوال من سنة 59 هـ، بعد عشرين يومًا من السير الحثيث يصل الكوفة، ثم يتّجه إلى بيت أحد أعلام الموالين وشجعانهم هناك، يُدعى "المختار بن أبي عبيدة الثقفي"، صهر والي الكوفة "النَّعمان بن بشير" المُعيَّن من قبل يزيد!

ما إن سمعت الكوفة بقدوم سفير الحسين انهالت على بيت المختار، الذي كان يقرأ عليهم كتاب الحسين ليبايعوه، حتى وصل عدد المبايعين ثمانية عشر ألفًا!

وقف يومها "عابس بن شبيب الشاكري" خطيبًا:

- إني لا أخبرك عن النَّاس، ولا أعلم ما في نفوسهم.. لكنِّي مُوطِّنٌ نفسي على القتال معكم، حتى ألقى الله شهيدًا.

ثم يقوم حبيب بن مظاهر ويقسم:

- وإني والله الذي لا إله إلا هو على مثل ما أنت عليه.

ويقوم سعيد بن عبد الله ويقول مثلهما.

كان مسلم يبايعهم على كتاب الله وسنَّة رسوله، وجهاد الظالمين، والدفاع عن المستضعفين، وتقسيم الغنائم بينهم بالسَّوية، وردِّ المظالم إلى أهلها، وأن ينصروا أهل البيت، ويكونوا سِلمًا لمن سالمهم، وحربًا لمن حاربهم.

ثم يكتب مسلم كتابًا إلى الحسين جاء فيه:

"بسم الله الرحمن الرحيم، أمَّا بعد، فإن الرائد لا يكذب أهله، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفًا، فعجِّل الإقبال حين يأتيك كتابي والسلام"
ويبعث الكتاب مع عابس الشاكري؛ لكي يسلمه الحسين في مكة المكرمة.
يعلم الوالي "نعمان بن بشير" بوصول مسلم، فيخطب فيهم في مسجد الكوفة، ويدعوهم لاتِّقاء الفتنة، ويهدد من ينقض بيعة يزيد بضرب عنقه، لم يُعجب ذلك "عبد الله بن مسلم الحضرمي"، فاتَّهمه بالضَّعف، كان يريد منه اعتقالهم وقتلهم وألا يكتفي بالتهديد فقط، فيقول له النَّعمان بن بشير بغضب:
- لأن أكون من المستضعفين في طاعة الله، أحبُّ إليَّ من أن أكون من الأعزِّين في معصية الله.
لكن الحضرمي، ومع هم على شاكلته، كتبوا ليزيد ليتخذ قرارًا بعزله!
يصل كتابهم ليزيد بن معاوية، فيجتمع مع سرجون الرُّومي، يستشيره، فيشير عليه بضم ولاية الكوفة لعبيد الله بن زياد والي البصرة، يتردد يزيد، فيخرج سرجون ما يؤكد أنه اختيار أبيه من قبل!
يكتب يزيدُ كتابًا لعبيد الله، يصله في الوقت الذي وصل فيه "قيس بن مسهَّر الصيداوي" –رسول الحسين إلى الكوفة– ردًّا على رسالة مسلم بن عقيل، فيأمر باعتقال قيس وقطع رأسه، ثم يرتقي مسجد مدينة البصرة، ويخطب فيهم مهددًا، ومما جاء في كلامه:

- والله.. إني نكلٌ لمن عاداني، وسمٌّ لمن حاربني.. أنا ابن زياد لم ينتزعني شبه خالٍ ولا ابن عم!

تسفر شمس الصباح، فيسير ابن زياد نحو الكوفة بصحبه "شريك بن الأعور" و"المنذر بن الجارود"، و"مسلم الباهلي" و"عبد الله بن الحارث"، ونخبة من الشرطة والغلمان، وهو متنكّر، كان يلبس ثيابًا يمانية، وعمامة سوداء، يدخل من البادية، فكان كلما مرَّ على قوم ظنُّوه الحسين، فيسلمون عليه، حتى اقترب من قصر الإمارة، وقد تحصن فيه "النعمان بن بشير"، فظنه هو الآخر أبا عبد الله، فقال له بحذر:

- أنشدك الله إلا تنحَّيت.. والله ما لي في قتالك من إرب!

فصاح به ابن زياد في تهديد شديد:

- افتح لا فتحت.. فقد طال ليلك!

فعرفه الناس، فقالوا:

- إنه ابن مرجانة وربِّ الكعبة.

وما إن دخل أغلق باب القصر، ثم سلمه رسالة تنصيبه، وعزله من ليلته!

9

كان ابن زياد متجبِّرًا، ومن أول يوم صعد منبر مسجد الكوفة، أشاع الرعب، وخطب فيهم مهددًا ومتوعدًا كل من يخالف أمره وأمر يزيد، ومما جاء فيها:

– أنا لمحسنكم كالوالد البرّ.. وسيفي وسوطي على من ترك أمري.

ثم خرج من المسجد، فصادف جماعة ظن فيهم نصرة الحسين، فأمر بقتلهم في الحال. ثم خطب فيهم مؤكدًا على نهجه الدموي:

- وإني آخذ البريء بالسقيم، والشاهد بالغائب!

يعترض عليه رجل، ويقول له بشجاعة:

- أيها الأمير، إن الله تبارك وتعالى يقول "ولا تزرُ وازرة وزر أخرى"، إنما المرء بجده والسيف بحدِّه، والفرس بشده، وعليك أن تقول، وعلينا أن نسمع، فلا تقدم فينا السيئة قبل الحسنة.

يستعين ابن زياد بالجواسيس من "الخوارج الحرورية" ومن على شاكلتهم؛ للقبض على الموالين لآل البيت، ومن يتخلف عن تسليمهم يُصلَب على باب داره!

يكثُر تهديده، فيخرج مسلم من دار المختار ليلًا، ويلتجئ إلى دار "هانئ بن عروة المرادي"، وكان فيها شريك بن الأعور، فيقرر ابن زياد زيارته؛ ليشم أي خبر بخصوص مسلم، فلما علم شريك بقدومه اتفق مع ابن عقيل على قتله غيلة، فلما حان موعد القتل، لم ينفذ مسلم الخطة المرسومة، كان شريك يردد يومها:

- هل لي بشربة ماء تروي فؤادي؟

فلم يخرج مسلم من خلف الستار؛ كي يفتك به، فلما مضى الوقت، صار شريك يردد أبياتًا من الشعر:

ما تنظرون بسلمى لا تحيُّوها حيوا سليمى وحيوا من يحييها

فنظر له ابن زياد بريبة، وقال:

- ما شأنه، أتظنونه يهجر؟

فقال هانئ مؤكدًا كلامه؛ كي يبعد الشبهة عنه:

- نعم يا حضرة الأمير، هذا هو ديدنه قبيل الصبح حتى ساعته هذه.

يشعر ابن زياد أن هناك مؤامرة تُحاك في الخفاء، ثم يولي على أدباره هاربًا.

فلما تأكدوا من انصرافه قال شريك معاتبًا مسلم بن عقيل:

- ما منعك عن قتل هذا الطاغوت؟

- خصلتان إحداهما كراهة هانئ أن يقتل في داره، والثانية حديث سمعته عن رسول الله (ص): "الإيمان قيد الفتك، ولا يفتك مؤمن".

بعد ثلاثة أيام يشتدُّ المرض بشريك ويقضي نحبه، فيصلي عليه ابن زياد، فلما تأكَّد من مؤامرته ضده، أقسم ألا يصلي على عراقي أبدًا!

لم تمضِ أيام حتى وقع "عبد الله بن يقطر"، رضيع الحسين ورسول مسلم إليه، في قبضة ابن زياد، كان يسير نحو القادسية، فقبض عليه "الحصين بن نمير"، وطلب منه أن يسب عليًّا والحسين فأبى ذلك، فأمرهم عبيد الله بن زياد أن يلقوه من أعلى القصر، فرُمي دون رحمة، سقط، فتكسَّرت عظامه، ومات شهيدًا.

لمَّا تأكد الموالون من وجود "مسلم" في دار هاني بن عروة، تسرَّبوا إليه بعيدًا عن أعين ابن زياد، الذي دعا رجلًا من أهل الشام يُسمَّى "مَعْقِل الحُمصي"، وكان فطنًا، أعطاه ثلاثة آلاف درهم، ثم أمره بالتجسس على تلك الدار؛ ليتلمس وجود مسلم، فمضى الرجل وهو يتصنَّع المكر والحيلة مدعيًا أنه من أتباع الحسين، وجاء لبيعته ونُصرته بالمال، فدلَّه "مسلم بن عوسجة" على الدار، فلما دخل على مسلم بن عقيل، صافحه مبايعًا

للحسين، لكن مسلمًا أخذ عليه الأيمان المغلَّظة أن يكتم السِّر، ثم أمر أبا ثمامة الصائدي بقبض المال ليُصرَف في السلاح والعتاد.

أصبح معقل من رواد الدار التي يكون فيها أول الداخلين وآخر المغادرين، حتى استطاع جمع المعلومات التي يزود بها ابن زياد.

كان هاني يتمارض؛ كي يتجنب لقاء ابن زياد، لكن ابن زياد أرسل له "محمد بن الأشعث" و"أسماء بن خارجة"، فأخبراه عن رغبته بلقائه، فركب بغلته وسار نحو قصر الإمارة، وهو يتوجس الغدر، فدخل عليه وعنده شريح القاضي، فنظر ابن زياد لشريح وقال بصوت خافت:

- أتتك بخائنٍ رجلاه.

ثم نظر إليه ابن زياد بحدة وأنشد بتهكُّم:

أريد حياته ويُريد قتلـــــــي عذيرك من خليلك من مراد

فقال هاني باستنكار:

- وما ذاك أيها أمير؟

قام ابن زياد من مكانه واقترب منه، وقال بغضب:

- جئت بمسلم بن عقيل، فأدخلته دارك، وجمعت له السلاح والرِّجال، وظننت أنَّ الأمر سيخفى عليَّ؟!

فقال له هاني ليحفظ مسلمًا:

- ما فعلت ذلك.

- بل فعلت.

يأمر ابن زياد بدخول معقل، ثم يلتفت إليه، ويقول ضاحكًا:

- أتعرف هذا؟

- نعم.

ثم نظر له ابن زياد والشرر يتطاير من عينيه:

- لا والله، لا تفارقني حتى تأتيني به.

يتصلب هانئ، ويقول في ثبات:

- لا والله لا أجيئك بضيفي حتى تقتله.

يقترب منه ابن زياد، وهو ينظر في عينيه بحدة:

- بل ستأتيني به.

ترتفع أصواتهما، فيقترب منهما "مسلم بن عمرو الكاهلي"، ويقول بلباقة:

- أصلح الله الأمير، خلِّني وإياه حتى أُكلِّمه.

يأخذه بطرف المجلس، ثم يخاطبه بصوت خافت:

- يا هاني، أنشدك الله ألا تقتلَ نفسك، وتُدخل البلاء على عشيرتك. إنَّ ابن عقيل ابن عم القوم، ولن يقتله السُّلطان.

ينظر له هاني مستأسدًا:

- بلى والله، إن عليَّ في ذلك الخزي والعار، أن أدفع جاري وضيفي ورسول ابن رسول الله، وأنا حي صحيح أسمع وأرى، شديد السَّاعدين، كثير الأعوان، والله لو لم أكن إلا واحدًا ليس لي ناصر لم أدفعه حتى أموت دونه!

يغتاظ ابن زياد، ويقول بتهديد:

- والله لتأتيني به، أو لأضربنَّ عنقك!

يحدجه ابن عروة بشموخ:

- إذًا –والله– تكثر البارِقة حول دارك.

يفتح ابن زياد عينيه على مصراعيها:

- وا لهفتاه عليك، أبا البارقة تُخوفني؟!

ثم يقترب منه ابن زياد وقد تلبَّسه الشيطان، يصرخ في وجهه:

- ادنُ منِّي.

يرفع القضيب، –ودون تردد– يضربه على وجهه، يُهشِّم أنفه، ينثر لحم خديه وجبينه، فتسيل الدماء على ثيابه، كان كالثور الهائج، لم يتوقَّف حتى كُسِر القضيب عليه، فأراد هاني أن يخلص نفسه بسحب سيف الشُّرطي بجانبه ليباغته، لكنه لم يترك له مجالًا، وبادر بإمساك يديه بإحكام.

يصرخ ابن زياد مُتهتِّكًا:

- خذوا هذا الخارجي الحروري، ألقوه في غيابة السجن.

10

يصلُ أمر اعتقال هاني إلى قبيلة "مذحِج"، فيحيطون بقصر الإمارة، ثم يتقدَّم زعيمهم مهددًا:

- أنا عمرو بن الحجَّاج الزبيدي، وهذه فرسان مذحج ووجوهها لم تخلع طاعة ولم تُفارق جماعة، وقد بلغهم أن صاحبهم قُتِل، فأعظَموا ذلك.

كان ابن زياد يسمع صولةً في الخارج، فيخبرونه بقدوم مذحج، يلتفت لشريح القاضي، ويأمره –في الحال– أن يخرج إليهم، ويخبرهم بأن هاني حيٌّ يُرزق، فيدخل شريح على هاني، فيستغل هاني الموقف محاولًا التأثير عليه، يصرخ في وجهه:

- يا الله وللمسلمين، أهلكت عشيرتي، فأين أهل الدِّين، وأين أهل المصر، أيخلوني وعدوهم وابن عدوهم؟

فبينا هو كذلك إذ سمع ضجَّة، فالتفت إلى شريح، وقال:

- إني لأظنها أصوات مِذحِج، لئن دخل عليَّ عشرة منهم أنقذوني.

لم يرد "شريح" عليه، أشاح بوجهه، ثم بادر بالخروج إلى القوم، وأخبرهم أنه لم يُقتل، ولديه اجتماع خاص مع الأمير، فيقول له زعيمهم "عمرو بن الحجاج الزبيدي" مُتخاذلًا:

- فأما إذا لم يُقتل فالحمد لله.

ثم يشير للجمع، فينصرفون دون أي ضمانة بسلامته!

يسارع عبد الله بن حازم لمسلم بن عقيل، ويخبره بما جرى، فيأمره مسلم أن ينادي في أصحابه "يا منصور أمِت".

يتداعى الناس من كل حدب في المدينة، حتى اصطكت الأسواق والطرقات وامتلأ المسجد، وكان على رأسهم قبيلة هاني "مذحج"، وقبيلة كندة وتميم وأسد ومضر وهمدان، فلما حان المساء أحاطوا القصر، واقتتلوا ساعة، لكن ابن زياد برغم قلة رجاله في القصر، الذين لم يتجاوزوا عددهم يومها ثلاثين رجلًا، إلا أنه بادر إلى إرسال "كُثير بن شهاب الحرثي"؛ ليحبِّط أهل الكوفة ويخذِّلهم عن نصرة ابن عقيل، وأمر محمد بن الأشعث بتثبيط كندة وحضرموت، وأرسل المنافقين شبث بن ربعي وحجار بن أبجر وشمر بن الجوشن؛ لتخذيل الناس، وليثيروا الرعب في نفوس الكوفيين، ويخوفوهم بقدوم جيش كبير من الشام أرسله يزيد للانتقام

منهم، فأخذ الناس يتفرقون، فالمرأة تحبط ابنها وأخاها، والأب يحبط ابنه وابن عمه.

يعتقل ابن زياد "المختار بن أبي عبيدة الثقفي" بعد أن استعرض وجهه بالقضيب، ثم يعمد بإرسال "كُثير"، الذي قام باعتقال المعارضين، وهكذا تفرَّق الناس عن "مسلم بن عقيل"، ولم ينتهِ من صلاة المغرب إلا وتقلص المصلين خلفه إلى ثلاثين شخصًا، فلمَّا أتمَّ العشاء لم يتبقَّ معه سوى عشرة وقع بعضهم في الأسر، والآخرين نكصوا، فوجد نفسه غريبًا لا ناصر له ولا مُعين، لم يكن في تلك الليلة الموحشة سوى الشرطة والجواسيس، الذين انتشروا للبحث عنه، يتقدمهم الحصين بن نمير، الذي وضع الحرس على أفواه السكك، أما المنافقين، فحملوا القناديل والقصب المشتعلة بالنار، وصاروا يجوبون الطرقات والأزقة؛ لإلقاء القبض عليه، واستلام الجائزة من ابن زياد.

كان ابن عقيل يمشي بحذر وقرر دخول دور بني جبلة من "قبيلة كندة"، فانتهى عند باب امرأة تُدعى "طوعة"، كانت أَمَةً للأشعث بن قيس، فتزوجها أُسيد الحضرمي فولدت له "بلالًا"، وكان من أولئك الذين يبحثون عن ابن عقيل؛ ليفوز بالجائزة!

كانت تخرج وتدخل خوفًا على ابنها، وكأنها سمكة مسمومة، فرأت ذلك الغريب جالسًا عند باب دارها، لم تتعرف عليه، طلب منها جرعة من الماء، فسقته، لكنه لم يتزحزح، فقالت بتوجُّس:

- يا عبد الله ألم تشرب الماء، فما لجلوسك عند باب داري وأنا أرملة، ولا أُحِلُّه لك؟!

فنظر لها بتودد، وقال بوعدٍ صادق:

- ليس لي أهل ولا عشيرة، فهل لك أن تُقدِّمي لي خدمة، وأكافئك عليها بعد اليوم؟!

وواصل في حُرقة:

- أنا مسلم بن عقيل بن أبي طالب، رسول الحسين إليكم، وقد جئت لأخذ البيعة إليه، فخانوني، وهم يسعون لتسليمي لابن زياد؛ ليقتلني!

نظرت له بودٍّ وخوف من أولئك المارقين:

- فداك روحي.. تفضَّل على الرُّحب والسَّعَة يا سفير الحسين.

تضيِّفه "طوعة" في إحدى الغرف القابعة في طرف بيتها، وكانت تتراوده، وقد قضى تلك الليلة في الصلاة وتلاوة القرآن، حتى شعر بالنعاس، فرأى في المنام عمَّه علي بن أبي طالب، وهو يبشِّره بقدومه إليه سريعًا، ويقول له: "أنت معي غدًا، العَجل العَجل"، فتيقَّنَ باستشهاده.

لما انفلق عمود الفجر، وانفتل من صلاته ودعائه، لقي طوعة، فقال لها بامتنان:

- لقد أدَّيتِ ما عليكِ من البرِّ والإحسان، وأخذتِ نصيبك من شفاعة النبي العدنان.

كان "بلال" يترصَّد ذلك الغريب؛ ليحظى بالجائزة، فرأى أمَّه تُكثر الدخول والخروج من تلك الغرفة النائية، ألحَّ عليها، فأخبرته باستضافتها مسلمًا، بعد أن أخذت عليه العهود، والمواثيق المغلظة.

وما إن انبلج الصَّباح، حتى أسرع ذلك الشقي إلى ابن زياد، ووقف قبالته مُتملِّقًا، وكان بجانبه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث:

- إن أمنا تضيف الأعداء.

ابتسم ابن زياد بخبث:

- قم فأتني به الساعة!

بعث ابن زياد معه "عمرو بن عبيد الله بن العبَّاس"، وسبعين رجلًا من قيس.

سمع مسلم حوافر الخيل وأصوات الرجال، فالتفت إلى طوعة بمودة وامتنان:

- رحمك الله وجزاك خيرًا.

ثم خرج إليهم وهو مسلطاً سيفه كالليث الغضبان، فشدُّوا عليه، فزأر فيهم، وتذكر بطولات عمه "علي"، فكشفهم عن الدار، وصار يدافعهم، كمن عاف الحياة، وهو ينشد:

هو الموت فاصنع ويكَ ما أنت صانعُ
فأنت بكـأس المــوت لا شكَّ جارعُ

نزل عليهم بسيفه البتَّار يحصد فيهم، كان يمسك بالرجال الأشداء ويرميهم بعيدًا في شجاعة نادرة ذكرتهم بصولات علي بن أبي طالب، تقدَّم "بُكير بن حمران الأحمري"، فرفع مسلمٌ سيفه البرَّاق، وأهوى به على عاتق ذلك الصنديد فهتكه، وكادت الضربة أن تصل إلى جوفه، لكن الشقي أصابه بسيفه البتار، فقطع شفته السُّفلى، فلما رأوا شجاعته كادوا له، فافترقوا عليه فرق، فرقة يرمونه بالحجارة، وأخرى بالقصب المشتعل من فوق السطح، لكنه لم يستسلم، بل كان يرتجز ببسالة:

أقســـمت لا أُقتل إلا حُرًّا وإن رأيتُ الموتَ شيئًا نُكرا
أخـاف أن أكـذب أو أغرَّا كلُّ امرئٍ يومًا مُلاقٍ شرّا

يدنو منه "محمد بن الأشعث"، ويقول له في حيلة:

– إنك لا تُكذَّب ولا تُغر.

لكنَّ مسلمًا واصل دفاعه باستماتة دون أن ينخدع بقوله. فلمَّا رأى الثبات منه، أرسل كي يمدَّه عبيد الله بن زياد بالخيل والرجال، فاستنكر عليه ذلك:

– إنا بعثناك إلى رجلٍ واحد لتأتينا به، فثلم في أصحابك هذه الثَّلمة العظيمة، فكيف إذا أرسلناك إلى غيره، وكان يقصد (الحسين بن علي).

نظر له ابن الأشعث مُستنْكراً:

– أيها الأمير، أتظن أنك بعثتني إلى بقَّال من بقالي الكوفة، أو جرمقاني من جرامقة الحيرة، أولم تعلم أنك بعثتني إلى أسد ضرغام، وسيف حُسام؟!

– إذن أعطه الأمان.

لم يجد ابن الأشعث طريقة للقبض عليه سوى "الخديعة"، فأعطاه الأمان، لكنَّ مسلمًا عرف أنها مكيدة، فقال ببسالة هاشمية:

- أَ أُؤسَرُ وبي طاقة؟ لا والله لا يكون ذلك أبدًا، وأيُّ أمان للغدرة الفجرة؟

حمل مسلم على ابن الأشعث، ففر منه كما تفر المعزى من الأسد، حتى بلغ العطش منه مبلغه، فشكى لله:

- اللهم إن العطش قد بلغ منِّي ما ترى.

لم يجرؤ أي منهم للتقدُّم ليسقيه الماء، فصاح فيهم ابن الأشعث:

- استغلوا ضعفه، احملوا عليه بأجمعكم حملة رجل واحد.

حملوا عليه، فأثخنوه بالجراحات حتى أعياه نزف الدَّم، واشتدَّ به العطش، فاستند إلى جدار، فجاءه رجل من الخلف، فضربه غيلة حتى وقع في الأسر.

نزعوا سيفه، ثم أُتي ببغلةٍ، فحُمل عليها، واقتيد إلى قصر الإمارة، فقال:

- هذا أولُّ الغدر.

ثم بكى على الحسين وأهل بيته مما ينتظرهم من بلايا ومحن، وطلب من محمد بن الأشعث أن يبلغ الحسين بنكص أهل الكوفة.

فرد ابن الأشعث في مكر:

- والله لأفعلن، ولأُعْلِمَنَّ ابن زياد أنِّي قد أمَّنتك!

جيء بمسلم إلى باب قصر الإمارة، وقد أخذ العطش منه مأخذًا عظيمًا، وكان على الباب قُلة ماءٍ مُبرَّد، فقال ممتحنًا لهم:

- اسقوني من هذا الماء.

فردَّ عليه مسلم الباهلي بخبث وفظاظة:

- أتراها ما أبردها! لا والله لا تذوق منها قطرةً أبدًا، حتى تذوق الحميم في نار جهنَّم.

فرد عليه ابن عقيل ممتعضًا:

- ويحك، لأمِّك الثَّكل، ما أجفاك وأفظَّك وأقسى قلبك وأغلظك! أنت –يا بن الباهلة– أولى بالحميم، والخلود في نار جهنَّم منِّي!

يبعث "عمرو بن حريث" غلامًا يُدعى "سُليمًا"، فيأتي بقلة ماء مبرَّدة، عليها منديل ومعه قدح، فيصبَّ فيه الماء، ثم يناوله مسلمًا ليشرب، لكنه كلما أراد أن يشرب امتلأ القدح دمًا، يفعل ذلك أكثر من مرَّة، وفي الأخيرة سقطت ثناياه في القدح، فقال مسلمٌ مُسلِّمًا إلى قضاء الله وقدره:

- الحمد لله، لو كان من الرِّزق المقسوم لشَربتُه.

أدخلوه على عبيد الله بن زياد فلم يُسلِّم، فقال له بحقد:

- سلَّمت أو لم تُسلِّم، فأنت مقتول.

فردَّ عليه مسلم بسرعة بديهة:

- إن قتلتني، فقد قتل من هو شرٌّ منك من هو خيرٌ منِّي.

عندها تدخَّل محمد ابن الأشعث، ونظر لابن زياد:

- يا أمير إني قد أمَّنته.

فاستوى على الكرسي، وقال بتبختر:

- وما أنت وذاك، كأنَّا أرسلناك لتُؤمنه، إنَّما بعثناك لتأتينا به.

سكت ابن الأشعث، ولم ينطق ببنت شفة، ثم التفت ابن زياد لمسلم، واتَّهمه بشق عصا الطاعة، وتفريق كلمة المسلمين.

فرد مسلم بشجاعة:

- إنما شق عصا المسلمين أميرك وأبوه، وأما الفتنة فمن ألقحها أنت وأبوك، وأنا أرجو أن يرزقني الله الشهادة على يدي شرِّ بريَّته!

كثر الجدال بينهما، ولما شعر مسلم بخبث عبيد الله، وأنَّه مصمم على قتله، أراد أن يوصي بوصيَّته.

فاختار مسلم "عمر بن سعد" مخاطبًا إياه بشفقة:

- يا عمر إنَّ بيني وبينك قرابة، وعندي لك سر.

امتنع عمر بن سعد عن الاستماع، لولا أن عبيد الله نفسه قد أذن له، فاقترب منه، وكان على مرمى نظر ابن زياد، فقال له مسلم:

- إن عليَّ دينًا استدنتهُ منذ قدومي إلى الكوفة مقداره سبعمائة درهم، فبِع سيفي ودرعي واقضها عنِّي، وإذا قُتلت فاستوهب جثَّتي من ابن زياد فوارها، وابعث إلى الحسين كي يرجع، فإني كتبت له أعلمه أن النَّاس معه، ولا أراه إلا مقبلًا.

لم يستطع كتمان السر، وأراد كشفه، فنهاه ابن زياد في تهكُّم:

- لا يخونُك الأمين، ولكن قد يؤتمن الخائن.

كان ابن زياد يسترق السمع إلى الوصيَّة فرد بوقاحة:

- أما ماله فهو له، ولسنا نمنعك ما تفعل به ما أحب، وأما جثته فسنصنع بها ما نحب، وأما الحسين فإذا لم يُردْنا لم نُرِده.

ثم يلتفتُ إلى مسلم متهمًا إياه:

- إيهٍ يا بن عقيل أتيت الناس وشتَّتتَ شملهم.

فرد مسلم بشجاعة:

- بل أتيت أهل مصر يقولون أنَّ أباك قتل خيارهم وسفك دماءهم، وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر، فأتيناهم لنأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، ونعمل بالعدل، وندعو إلى كتاب الله.

- أولم نكن نعمل بالعدل؟

يرد عليه مسلم بثبات:

- إن الله يعلم أنك غير صادق، وإنك لتقتل على التهمة والظنَّة.

لم يتحمل إجابات مسلم التي كشفت زيف ادعاءاته، فراح عبيد الله يسب عليًّا، وعقيلًا، والحسن، والحسين.

فلم يسكت مسلم؛ بل قال له بشجاعة حيدرية:

- أنت وأبوك أحق بالشتم، فاقضِ ما أنت قاضٍ.

فانتفخت أوداجه حتى بدا كثعبان في ساعة نفثه لسمومه، فنادى بأعلى صوته:

- أين من أصاب مسلم في وجهه، هيا خذه واصعد به أعلى القصر واضرب عنقه، ثم ارمه من الأعلى؛ كي تفتت عظامه.

جاء "بكير بن حمران الأحمري"، صعد به، وكان مسلم يُكبِّر ويُهلِّل ويصلي على النبي وآله، ثم تضرَّع إلى الله:

- اللهم احكم بيننا وبين قومٍ غرُّونا وخذلونا.

وقبيل تنفيذ ما أمره عبيد الله أدار مسلم رأسه نحو مكة مُسلِّمًا على الحسين.

11

بعد تأكُّد الطاغية من قتل مسلم، أمرهم بحمل جثته الطاهرة، وفي الوقت ذاته يأمرهم بإخراج هاني بن عروة من السجن، فأخذوه مكتوف اليدين بصحبة جثة ابن عقيل إلى سوق الغنم، وهناك ضربوا عنقيهما في وسط السوق، وقطعوا رأسيهما أمام الناس، في تحدٍّ وتخويف لعشيرتيهما، وكل من يسعى لنصرة الحسين. كان ابن عروة قبيل فصل رأسه عن جسده ينادي فيهم متحسِّرًا عليهم:

- وا مَذحِجاه، ولا مَذْحِج لي اليوم، يا مذحجاه، يا مذحجاه، وأين مذحج؟

فلمَّا رأى أنَّ أحدًا لا ينصره نزع يده من الكتاف، وجعل يقول بتحريض:

- أما من عصًا أو سكِّين أو حجر يُدافع بها الرَّجل عن نفسه؟

وثبوا إليه وشدُّوا وثاقه، ثم أمروه أن يمد عنقه، فقال في صلابة:

- ما أنا بها سخي، وما أنا بمعينكم على نفسي.

فانبرى إليه "رشيد التركي"، فضربه ضربة لم تكن قاطعة.

فاستعاذ، وتشهَّد، وقال في تسليم:

- إلى الله المعاد والمنقلب، اللهم إلى رحمتك ورضوانك، اللهم اجعل هذا اليوم كفَّارة لذنوبي، فإني إنما غضبت لابن بنت نبيِّك.

لم يلبثوا أن قتلوه، وكان عمره يومها تسعة وتسعين عامًا، ثم أمر ابن زياد بأخذ رأسيهما، وأرسلهما إلى يزيد مع رسالة كتبها "عمرو بن نافع" يبين فيها ما فعلا، وما جرى عليهما، وبعثها مع "هاني الوداعي" و"الزبير التميمي"، ثم أمر بجثتيهما فصُلبتا منكوستين بالكنَّاسة، بعد أن سحبوهما بالحبال من أرجلهما في الأسواق طوال النَّهار. ولما وصل رأساهما الشريفان أمر يزيد بنصبهما في درب دمشق!

12

يصلي الحسين ركعتين بين الركن والمقام، ثم يقف خطيبًا في شجاعة وحماس:

- "الحمد لله، وما شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصلى الله على رسول الله.

خُطَّ الموت على ولد آدم مَخطَّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يُوسُف، وخير لي مصرعٌ أنا لاقيه، كأنِّي بأوصالي تُقطِّعُها عُسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، فيمْلَأْنَ مِنِّي أكراشًا جُوفًا وأجرُبةً سُغبًا، لا محيصَ عن يومٍ خُط بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت، نصبرُ على بلائه ويوفينا أجور الصابرين، لن تشذّ عن رسول الله لحمته، بل هي مجموعةٌ له في حظيرة القدس، تقرُّ بهم عينه، وينجَز بهم وعدُهُ، من كان باذلًا فينا مُهجتَهُ، ومُوَطِّنًا على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فإنني راحل مصبحًا إن شاء الله".

يقترب منه عبد الله بن الزبير في خبث:

- حدِّثني ما تريد أن تصنع؟

- أُحَدِّثُ نفسي بإتيان الكوفة، ولقد كتبتْ إليَّ شيعتي بها وأشراف أهلها، وأستخير الله.

يستغل الفرصة بدهاء:

- أما لو كان لي بها مثل شيعتك ما عدلت بها.

أحسَّ أن الحسين علم بمكره، فغيَّر من لهجته:

- أما لو أنَّك أقمت بالحجاز، ثم رددت الأمر ها هنا لما خالفنا عليك، وساعدناك وبايعناك ونصحنا لك.

فرد الحسين بتعظيم لبيته المشرَّف:

- إن أبي حدَّثني أنَّ لها كَبْشًا به تُستحلُّ حرمتُها، فما أحب أن أكون ذلك الكبش.

والله لأن أُقتل خارجًا منها بشبرٍ أحبُّ إليَّ من أن أقتل فيها، ولأن أُقتل منها خارجًا بشبرين أحب إليَّ من أن أُقتل خارجًا عنها بشبر، وأيم الله لو كنتُ في جُحر هامَّةٍ من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا حاجتهم، والله ليعتدُون عليَّ كما اعتدت اليهود في السَّبت".

فلما ولَّى قال الحسين لبعض خاصته:

- إنَّ هذا ليس شيء من الدُّنيا أحب إليه من أن أخرج من الحجاز، وقد علم أن النَّاس لا يعدلونه بي؛ فودَّ أنِّي خرجتُ حتى تخلو له!

13

علِم أخوه محمد بن الحنفية بخروجه، فبكى بكاءً شديدًا، حتى بلَّت دموعه لحيته، وتمنَّى منه ألا يذهب إلى الكوفة؛ لغدرهم بأبيه وأخيه، فردَّ عليه الحسين بتفهُّم:

- يا أخي، قد خفتُ أن يغتالني يزيد بن معاوية في الحرم، فأكون الَّذي تُستباح به حُرمة هذا البيت.

نظر له ابن الحنفية، وقال له بترقب وحذر:

- فإن خفت ذلك، فصِر إلى اليمن أو بعض نواحي البر، فإنك أمنع الناس به، ولا يقدر عليك أحد.

طال بهم الكلام، فوعده الحسين النظر في اقتراحه، لكنه بعد ساعة ركب ناقته وبدأ التَّحرك، فرآه ابن الحنفية، فقال له باستغراب:

- ألم تعدني بالنظر؟ فما حداك على الخروج عاجلًا؟

- أتاني رسول الله (ص) في المنام، فقال لي: "يا حسين اخرج، فإن الله شاء أن يراك قتيلًا".

غمغم ابن الحنفية:

- لا حول ولا قوَّة إلا بالله. فما معنى حملك هؤلاء النسوة معك؟

- شاء الله أن يراهُنَّ سبايا.

توالت النصائح على الحسين، وكأنهم يجهلون قدره، نصحه عمر بن عبد الرحمن والمسور بن مخرمة وعبد الله بن عباس، فسَمِع صوتًا شُجاعًا من خلفه:

- يا بن عباس، تشير على شيخنا وسيِّدنا أن يخلِّفنا ها هنا ويمضي وحده؟! لا والله، بل نحيا معه، ونموت معه، وهل أبقى الزَّمان لنا غيره؟

فصرخ ابن عباس: وا حُسيناه.

ثم التقى بابن الزُّبير، فقال له متهكِّماً:

- قرَّت عينك يا بن الزبير، ثم أنشد:

يا لـك مـن قُـبَّرة بمـعـمـر
خلا لك الجو فبيضـي واصـفري
ونقِّري مـا شـئـت أن تُنَقِّري
هذا الحسـين سائـرٌ فأبْشـري

يشير عليه "عبد الله بن عمر" بالصلح، ثم يلتقي "جابر بن عبد الله الأنصاري"، فيشير عليه بما أشار القوم، ولما علم "عبد الله بن جعفر" زوج

أخته "السيدة زينب" بخروجه إلى العراق، كتب له رسالة وبعثها مع ولديه عون ومحمد، تتضمن نهيه عن التَّوجه إلى العراق، واستعداده أن يأخذ له ولأبنائه وماله (كتاب أمان) من يزيد، فردَّ عليه الحسين برسالة عرَّج فيها على رؤيته رسول الله في الحلم وأمره له بالمسير، وأنهم غير تاركيه على أي حال.

لم يكتفِ عبد الله بن جعفر بذلك، بل توجَّه بنفسه من المدينة المنوَّرة إلى والي مكة "عمرو بن سعيد الأشدق" بسرعة البرق، فسأله أن يكتب له كتابًا، فكتب وأخذه مع "يحيى بن سعيد بن العاص"، حتى التقى بالحسين الذي أصرَّ على موقفه، وقد وصلته رسالة من الأشدق تؤكد على كتاب عبد الله بن جعفر، فرجع ابن جعفر وهو غارق في الحزن برفقة ابن العاص، وسلمهم جوابًا من الحسين إلى الأشدق يؤكد فيه أنه لم يشق عصا المسلمين، وأنه لا يريد أمانًا دنيويًّا، بل أمان يوم القيامة!

يحوَّل الحسين حَجَّتَه لِعُمرةٍ مفردة، ويحل من إحرامه، يخرج معه أخوته وأبناؤه وأبناء أخيه وعمِّه وعموم أهل بيته ومواليه، متجهين نحو العراق.

14

كان الحسين وأصحابه يشقُّون طريقهم في الصحراء نحو كربلاء، طريق التضحية والفداء، يرسمون لوحة تخلدهم على مدى الزَّمان، لكن والي مكة "عمرو بن سعيد بن العاص" لم يرق له الأمر، فبعث في طلبهم أخوه يحيى وجماعة من أبنائه؛ لكي يرجعوه بالإكراه، فاعترضوا طريقه، وتضاربوا بالسياط، فلم يتراجع قيد أنملة، فقال له أحدهم في محاولة تضليل مُتعمَّد:

- يا حسين، ألا تتقي الله؟ تخرج من الجماعة، وتُفرِّق بين هذه الأمة؟

نظر له الحسين متبرِّئًا من خطهم الأموي، وتلا عليه:

- "لي عملي ولكم عملُكم، أنتم بريئون ممِّا أعمل، وأنا بريءٌ مما تعملون".

رجعوا على أعقابهنَّ خائبين، لكن عمرو بن سعيد بن العاص كتب ليزيد بن معاوية، وعبيد الله بن زياد رسالة، يحذرهما من قدوم الحسين، الَّذي مضى نحو ساحة الحرية رافعًا رأسه، في شموخ هاشمي عز نظيره.

أما والي المدينة فقد سارع لكتابة رسالة وبعثها لعبيد الله بن زياد، يُحذِّره من التعرُّض إلى الحسين؛ كي لا يسهم في حفر أساسات البيت الأموي الآيل للسقوط، لكن ذلك الشيطان لم يرعوِ، وقد تلقَّى أوامر من يزيد بإحكام قبضته على العراق، فذهب بعيدًا في غيِّه، فبعث صاحب شرطته

"الحصين بن نمير التميمي"، الذي نزل "القادسيَّة"، فأقام رجاله بينها وبين "القطقطانيَّة"، ووضع المسالح والمراصد ما بين "واقصة" إلى طريق "الشَّام"، ومنه إلى "البصرة"، فأحكم السيطرة على البلاد، وكأنها ستتعرض لغزوٍ خارجي!

15

يقف الحسين في أهل بيته وصحابته، يحثُّهم على الصَّبر، فأمامهم عشرون منزلًا لا بد لهم من قطعها؛ كي يصلوا تلك الساحة المختارة، التي تنتظر دماءهم المقدَّسة؛ كي تتطهر من دنس الانهزام والجُبن.

سار الركب بهمة، يلتقي الحسين بيزيد بن ثبيط البصري في أول منزل في "الأبطح" بين مكة ومنى في أواخر "مقبرة الحجون"، ثم يصل إلى "التنعيم"، فيرى موكبًا فخمًا قد أقبل من جهة "اليمن"، كان يحمل نبات الورس الأصفر، وحللًا كثيرة، قد أرسلها والي اليمن "بحيرُ بن ريسان الحميري" إلى "يزيد"، فأخذها الحسين، واستأجر الجمال من أصحابها، وعرض عليهم صحبته أو الرجوع، وأعطاهم كِراهم. ثم سار نحو "الصِّفاح" وهي تقع بين "حُنين" و"أنصاب"، فلقيه الشاعر همَّام بن غالب البصري "الفرزدق"، فقال له مستنكرا:

- بأبي أنت وأمِّي ما أعجلك عن الحج؟

فرد الحسين ببصيرة وتسليم:

- لو لم أعجل لَأُخِذت. من أين أقبلت؟

- من الكوفة، ولقد رأيت عجبًا، فقلوب الناس معك، وسيوفهم عليك!

نظر له الحسين مُؤَكِّدًا إصراره على مناجزة الظلم:

- صدقت، لله الأمر، والله يفعل ما يشاء، فإنْ نزل القضاء بما نحب فالحمد لله، وإن حال دون الرَّجاء، فلم يتعدَّ من كان الحقُّ نيَّته.
- أجل، بلَّغك الله ما تُحبُّ، وكفاك ما تحْذر.

استغل الفرزدق رؤيته فسأله عن أحكام مناسك الحج ونذوره، ثم افترقا.

سار الحسين بثبات حتى نزل في "وادي العقيق"، فلقيه رجل من بني أسد، فأكد كلام الفرزدق، ثم وصله كتاب ابن عمه "عبد الله بن جعفر"، لكنَّه قد اتخذ قرارا لا رجعة فيه، ثم نزل في "وادي الصفراء"، وقد لقيه "مجمع بن زياد" و"عبَّاد بن مهاجر"، فصحباه إلى كربلاء، وواصل مسيره نحو العراق فقطع "ذات عرق"، ثم استقرَّ في الحاجز من "بطن الرِّمَّة"، ثم كتب الحسين كتبًا إلى رؤساء الموالين في الكوفة "سليمان بن صرد الخزاعي"، و"المسيب بن نجبة" و"رفاعة بن شداد"، و"حبيب بن مظاهر الأسدي"، و"عبد الله بن وال"، وغيرهم ومما جاء فيها:

"من رأى منكم سلطانًا جائرًا، مُستحلًّا لحرام الله، ناكثًا لعهد الله، مخالفًا سنَّة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعُدوان، فلم يغيِّر عليه بفعلٍ

ولا قولٍ، كان حقًّا على الله أن يدخله مدخله. ألا وإنَّ هؤلاء القوم قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطَّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلُّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحقُّ بهذا الأمر ممن غيَّر، وقد أتتني كتبكم.. فإن أتممتم عليَّ بيعتكم تصيبوا.. وإن نقضتم عهدي فحظُّكم أخطأتم ونصيبكم ضيَّعتم (ومن نكث فإنما ينكث على نفسه)، وسيغني الله عنكم والسلام".

ثم قام الحسين ببعث الرسالة مع "عبد الله بن يقطر" استجابة لما وصله من مسلم بن عقيل، مؤكدًا على قدومه إليهم تلبية لدعوتهم.

سار الرسول بِهمَّة لكنه وقع في يد أشقى الأشقياء "عبيد الله بن زياد"، فأمر بقتله، فلمَّا بلغ الحسين ذلك استرجع واستعبر، وسالت دموعه على خديه، وتلا في خشوع: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 23]، ثم رفع كفه إلى السماء:

- اللهم اجعل لنا ولشيعتنا عندك منْزلًا كريمًا.

كان يجدُّ السير حتى وصل إلى منزل "الأجفر" فلقيه "عبد الله بن مطيع العدوي"، فقال له محذرًا من بطش بني أمية:

- أنشدك الله في حُرمة العرب، فوالله لئن طلبت ما في أيدي بني أميَّة ليقتُلنَّك، ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحدًا أبدًا.

لم يلتفت إليه الحسين، ومضى في طريقه مُلبّيًا دعوة الله حتى وصل "الخزيميَّة" فأقام بها يومًا وليلة، فأتته أخته زينب، وقالت في تَرقُّب:

– يا أخي لقد سمعت هاتفًا البارحة يقول:

ألا يا عيْنُ فـاحتفلي بجُهـد فمن يبكي على الشهداء بعدي

على قومٍ تســـوقهم المنـايا بمقــدارٍ إلى إنجـــــــاز وعـد

نظر لها بود، صبرها وواساها، ثم سار حتى وصل منزل "الشقوق"، فإذا برجل من أهل الكوفة يحثّه على الرجوع، فأنشد الحسين ينعى نفسه، ومما قال في جوابه:

فإن تكن الدُّنيا تعدُّ نفيســـة فـدار ثواب الله أعلى وأنبـلُ

عليكم سـلام الله يا آل أحمد فإنِّي أراني عنكم سوف أرحلُ

انتهى الحسين إلى المنزل الثاني عشر في "زرود"، وأقام بها ليلة، وكان قد نزل بها "زهير بن القين البجلي" بعد أنْ أتمَّ حجه، وهو في طريق العودة إلى الكوفة، كان زهير يتحاشى النزول إلى جانب الحسين أو القرب منه، فقد كان عثماني الهوى، ولم يشارك في حروب أمير المؤمنين علي، حتى جمعهم ذلك المكان، فأرسل له الحسين رسولًا، وكان لحظتها مع جماعته

منهمكين في أكل الطعام، فطرح ما في يده، وأطرق برأسه، لكن زوجته "دلهم بنت عمرو" دعته لتلبية الدعوة، فبادر إليه، وما لبث أن رجع إلى فسطاطه مستبشرًا، وتحوَّلَ إلى ركب الحسين، ثم أعطاها ماله، وأوصى بها بعض أبناء عمومته، فقالت له في تسليم:

- خار الله لك، أسألك أن تذكرني عند جد الحسين.

وقبل انصرافه التفت إلى أصحابه وقال باستبشار:

- "إنا غزونا بلنجر في بلاد الخزر، ففتح الله علينا، وأصبنا غنائم ففرحنا.

فقال لنا سلمان الفارسي:

- أفرحتم بما فتح الله عليكم؟ فقلنا نعم.

فقال لنا:

- "إذا أدركتم شباب آل محمد، فكونوا أشد فرحًا بقتالكم معه".

ثم لقيه أحد رجال بني أسد، فأخبروه بمقتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة، وجر جثتيهما الطاهرتين من أرجلهما في الأسواق، فقال بحسرة وألم:

- إنا لله وإنا إليه راجعون، رحمة الله عليهما.

أخذ الحسين يكرر ذلك، ثم بكى واستعبر، فرفع الهاشميون صوتهم بالبكاء والنحيب، وارتفعت الصيحة من بنات الرسالة، فسمعت بذلك "حميدة

بنت مسلم"، وكانت ابنة ثلاث عشرة سنة، فبكت بحسرة، فمسح الحسين على رأسها، وقال بشفقة وحنان أبوي:

- يا بُنيَّة لا تحزني، فلئن أُصيب أبوك، فأنا أبوك، وبناتي أخواتك.

ثم سار الركب حتى وصلوا إلى "زُبالة"، وهناك أتاه كتاب من أخيه من الرضاعة "عبد الله بن يقطر" الذي قتل على يد ابن زياد بتأكيد قتلهما، فقال لهم الحسين برفق وتواضع:

- من أحبَّ منكم الانصراف فلينصرف في غير حرج، وليس عليه ذمام.

تفرَّق عنه كثير من الأعراب، ولم يتبقَّ معه إلا الخُلَّص من أصحابه وأهل بيته.

فلمَّا وصل "الثُّعلبيَّة" لقيه أحدهم مُشكِّكاً في صحة خروجه، فقال له الحسين:

- أما والله، لو لقيتك بالمدينة لأريتك أثر جبريل في دارنا!

ثم مرَّ الحسين بغلام يُدعى "بجير"، الذي قال متعاطفًا:

- يا بن بنت رسول الله أراك في قلَّة من النَّاس.

فأشار الحسين إلى حقيبة رجلٍ بجانبه:

- هذه مملوءة كُتبًا!

ثم لقيه رجل أزدي من أهل الكوفة، فقال له مسلِّما لقضاء الله وقدره:

- يا أبا هُرَّة لتقتلني الفئةُ الباغية، وليُلبسنَّهم الله تعالى ذلًّا شاملًا، وسيفًا قاطعًا، وليُسلطنَّ الله عليهم من يُذلَّهم، حتى يكونُوا أذلَّ من قوم سبأ.

ثم جاءه رجل نصراني مع أمه، وأسلما على يديه وصحباه إلى كربلاء!

وفي أثناء مسيره وصله مقتل "قيس بن مسهر الصيداوي" فبكى واستعبر، وكان قبلها بكى على "عبد الله بن يقطر"، ثم أخبر من معه بمقتلهما، ففر الناس منه.

كان العدد يتقلَّص بشكل مُتصاعد بسرعة فائقة، ولم يتبقَّ معه إلا المخلصون.

16

يصل الحسين لمنزل "القاع"، فيلقاه شيخ من بني عكرمة، يُدعى "عمر بن لوذان" ينهاه عن المسير نحو الكوفة، فيردَّ عليه بصمود:

- يا عبد الله لا يخفى عليَّ الرأي، لكن الله لا يُغلَب على أمره، والله لا يدعونني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي.

ثم يسير حتى ينزل "ببطن العقبة"، وهناك رأى في المنام، كأنَّ كلابًا تنهش جسمه الطاهر أشدها عليه كلب أبقع.

واصل مسيره بهمة، ولم يتوقف في "واقصة" بل في "شراف"، فأقام فيها إلى الليل، فلما حان وقت السحر أمر فتيانه أن يتزوَّدُوا بالماء ويكثروا منه، وعندما حان وقت الغروب واصل مسيره، فقطع "القرعاء" و"المغيثة" حتى وصل إلى "القادسية" وهي أول منزل في العراق.

كان يسير بهمة لا يلوي على شيء حتى انتصف النَّهار، فسمع أحد رجاله يكبِّر، فقال:

- الله أكبر.. ممَّ كبَّرت؟

- رأيت النَّخيل.

فنظر له أصحابه مستنكرين:

- والله ما رأينا في هذا المكان نخلة قطُّ.

نظر لهم الحسين بسكينة واطمئنان:

- فماذا ترون؟

- نرى أسنة الرِّماح، وآذان الخيل.

يؤكد على رؤيتهم، ثم يقول لهم بنبرة القائد:

- أما لنا ملجأ نلجأ إليه، ونجعله في ظهورنا، ونستقبل القوم بوجه واحد؟

فيردون بنبرة ترقُّب:

- جبل ذي حُسم، فمل على يسارك، فإن سبقت إليه فهو كما تريد.

يدعوهم الحسين للتعجيل بالمسير حتى وصل منزل "ذو حُسم"، وهناك ضرب أبنيته، وأقام فسطاطه وأنزل عائلته.

وإذا بجنود كأن أسنتهم اليعاسيب، راياتهم ترفرف كأجنحة الطيَّر، كانوا زهاء ألف فارس يقودهم "الحر بن يزيد الرياحي"، جاء بأمر من ابن زياد ليسايره، ويأتي به إلى الكوفة؛ كي لا يرجع إلى وطن جدِّه في المدينة المنوَّرة، وصل قبيل وقت صلاة الظهر، رأى الحسين أن العطش قد فتت أحشاءهم، فأمر شباب معسكره أن يسقوا القوم، ويرشِّفوا الخيل ترشِيفًا، فجاءوا بقصاعهم وطستهم فملؤها لهم، ثم قدموا الماء للخيول، فإذا عبُّوا

ثلاث عبَّات ينقلونها لآخر، حتى سقوْهم وخيولهم بتلك المياه العذبة، التي انتشلتهم من الموت.

وجاء في آخر الركب رجل يُدعى "علي بن الطعَّان المحاربي"، فرأى الحسين ما به من تعب وعطش، فقال له بلهجة أهل الحجاز:

- أنِخ الرَّاوية؟

فلم يعرف معنى قوله، فقال له الحسين ثانية:

- يا بن الأخ.. أنخ الجمل.

أناخ جمله، وكلما شَرِب من الماء سال من السقاء، فقال له الحسين:

- اخنث السِّقاء.

فوقف مشدوهًا لا يعرف ما يفعل، فقام الحسين بنفسه فخنثه (عطفه)، فشرِب وسقى فرسه حتى ارتوى.

وما إن أتم السقاء، حان وقت صلاة الظهر، فأمر الحسين "الحجاج بن مسروق الجعفي" أن يؤذِّن في الناس فأذَّن، فلما حان وقت الإقامة تقدَّم الحسين في إزار ورداء، لابسًا نعليه متَّكئًا على قائم سيفه، فاستقبل القوم، ثم حمد الله وأثنى عليه، ومما قال:

- "يا أيها النَّاس، إنَّما معذرة إلى الله –عزَّ وجل– وإليكم، إنِّي لم آتكم حتى أتتني كُتبكم، وقدمت عليَّ رسُلكم: "أن أَقْدِم علينا، فإنَّه ليس لنا إمام، لعلَّ الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق"، فإن كنتم على ذلك، فقد جئتُكم، فأعطوني ما أطمئن به من عهودكم مواثيقكم، وإن كنتم لمقدمي كارهين انصرفتُ عنكم إلى المكان الذي جئتُ منه إليكم".

فصمتوا وكأنَّ على رؤوسهم الطَّير، فأشار الحسين للمؤذن أن يقيم الصلاة، ثم التفت إلى الحر، وقال له بلباقة ولطف:

- أتُصلِّي بأصحابك؟

فارتجف الحُر، وقال بإجلال وتوقير:

- بل تصلِّي ونُصلِّي بصلاتك.

صلى بهم الحسين، وفور انتهائه دخل الخيمة، فاجتمع حوله أصحابه، أما جنود الحُر، فأخذ كل منهم دابته، وجلس مستظلًّا بظلها لشدَّة الحر.

وعند العصر خطب فيهم، وحثهم على تقوى الله مبينًا أولوية أهل البيت في شؤون الحكم، ثم ذكرهم بكتبهم، فقال الحر باستغراب:

- ما أدري عن الكتب، والرُّسل التي تذكر!

فأمر الحسين "عقبة بن سمعان"، فأخرج خُرجين مملوأين بالكتب، فنثرت بين يديه.

بُهت "الحر" لهول ما رأى، ثم قال باستنكار:

- إنّي لستُ من هؤلاء الذين كتبُوا إليك، وإنّي أُمِرتُ ألا أفارقك إذا لقيتك، حتى أُقدمك الكوفة على ابن زياد.

ينظر إليه الحسين، والشجاعة تفوح من عينيه:

- الموت أدنى إليك من ذلك.

مشى الحسين خطوات، ثم أمر أصحابه بالركوب، وانتظر حتى ركبت نساؤه على المحامل، ثم التفت إلى أصحابه، وقال في حماس، وكأنَّه لا يرى جيش الحُر:

- انصرفوا.

ولم يكادوا يتحركوا بضع خطوات، حتى حال الجيش بينهم وبين الانصراف.

فنظر الحسين بغضب إلى الحر:

- ثكلتك أمُّك ما تريدُ منَّا؟

فقال الحر بحلمٍ وتقدير:

- أما لو غيرُك من العرب يقولها لي، وهو على مثل هذه الحال التي أنت عليها لما تركت ذكر أمه بالثكل، كائنًا من كان، ولكن مالي لذكر أمك سيدة نساء العالمين من سبيل، إلا بأحسن ما نقدر عليه.

فقال له الحسين باستئساد:

- فما تُريد؟

فنظر له الحر بإصرار:

- أُريد أن أنطلق بك إلى الأمير عبيد الله بن زياد.

فابتسم الحسين، وقال ببأسٍ شديد:

- إذن والله لا أتَّبعك.

فقال الحر مُتصلِّبًا:

- إذًا والله لا أدعك.

ترادا القول مرارًا، فقال الحر للحسين:

- إنِّي لم أُؤمَر بقتالِك، وإن أبيت إلا المسير فخذ طريقًا لا يدخلك الكوفة، ولا يرجعك إلى المدينة، حتى أكتب لعبيد الله.

سار الحسين وأصحابه على غير الجادَّة، ثم سايره الحر ونصحه إلا يُقاتل وإلا سيُقتل، فقال له الحسين ببسالة المُضحِّي:

- أفبالموت تخوفني؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني؟

ثم أنشد شعرًا كما قال أخو الأوس عندما خوَّفه ابن عمه بالقتل عند نصرة الرسول (ص):

سأمضي وما بالموت عارٌ على الفتى

إذا ما نـوى حقًّا وجـاهد مسـلمًا

فلما رأى الحر إصراره تنحَّى عنه، فأخذ يسير في ناحية والحسين في الناحية الأخرى.

واصل الحسين مسيره والحر يسايره، حتى وصل لموقع يُدعى "البيضة"، ثم قام فيهم خطيبًا، ومما قال:

- من رأى منكم سلطانًا جائرًا، مُستحِلًّا لحرام الله.. فلم يغير عليه بفعل أو قول، كان حقًّا على الله أن يدخله مدخله.

ثم عَرَّفهم بنفسه، وذكرهم بكتبهم وختمها بآية من كتاب الله: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [الفتح: 10].

ثم سار، فلقيه رجل من أهالي الكوفة، فسأله عن علَّة خروجه، فكرر عليه الأسباب، حتى وصل لمرعى خيل ملك الحيرة، ويُدعى "عُذيب الهجَّانات"، فالتحق به أربعة فرسان جاءوا من جهة الكوفة، "نافع بن هلال الجملي"،

و"مجمع بن عبد الله"، و"عمرو بن خالد الصيداوي"، و"الطرِمَّاح بن عدي الطائي"، الذي كان دليلهم.

كان الحر بن يزيد يراقب مشهد وصولهم، فأراد منعهم، ثم التفت إلى الحسين:

- هؤلاء ليسوا ممن أقبل معك.

فنظر له الحسين بحدَّة:

- هؤلاء أنصاري وأعواني.. فالتزم بما عاهدتني وإلا ناجزتك القتال.

تراجع الحر عن إيذائهم، سألهم الحسين عن أحوال الناس في الكوفة، فأخبره "مجمع" عن شراء ذمم الأشراف، وأما عامة الناس، فأفئدتهم معه وسيوفهم عليه. ثم أخبروه عن مصير رسوله "قيس بن مسهر الصيداوي"، فالتفت إليهم الحسين:

- من يدُلنا الطريق على غير الجادَّة.

فانبرى الطرمَّاح، وقال في تبجيل:

- أنا يا بن رسول الله.

يأمره الحسين أن يتقدم الركب، وأخذ يحدو بهم؛ كي تسكن النوق، وتطمئن نفوس النساء من روعٍ ما أصابهم من زعزعة جيش الحر، ومما قال:

يا ناقتي لا تـذعري من زجرِ   واســـر بنا قبل طلوعِ الفجرِ
بخير فتيـــــانٍ وخير سفـــرِ   آل رسول الله آل الفخــــرِ
يا مالك النَّفعِ معًا والضُّـــرِ   أيِّد حسيـــنًا سيِّدي بالنَّصرِ

فلما انتهى من الحِداء، اقترب من الحسين، حذَّره من خيانة أهل الكوفة، وعزمهم على قتاله، نصحه أن يتَّجه إلى جبل يُدعى "أجا"، الذي لجأ له يومًا ملوك الغساسنة وحمير، ليقيم في القرية المحيطة به، مع تعهده بجلب رجال قبيلته "طي" بعد عشرة أيام، مؤكدًا على قدرته بجلب عشرين ألف طائي، فنظر له الحسين بامتنان:

- جزاك الله خيرًا، لكن هؤلاء لن يتركونا.

ودَّع الطرمَّاح الحسين، ووعده أن يوصل "الميرة" إلى أهله ويعود لنصرته.

سار الحسين مع الركب حتى تجاوز منزل "القطقطانية"، ثم جدَّ في المسير حتى وصل في الحادي من محرم الحرام سنة 60هـ لمنطقة "قصر بني مقاتل"، فرأى فسطاطًا مضروبًا، ورمحًا مركوزًا، وفرسًا واقفًا، فسأل عنها فقيل له

أنها لـ "عبيد الله بن الحر الجعفي"، فبعث له الحسين "الحجَّاج بن مسروق الجعفي"، فسأله عن سبب قدومه، فقال:

- جئت بهدية إليك وكرامة، فالحسين يدعوك لنصرته.

أشاح بوجهه:

- والله ما خرجت من الكوفة إلا كراهية أن يدخلها الحسين لاجتماعهم على قتاله، فعلمت أنه مقتول، ولا أقدر على نصرته، وأخجل من رؤيته.

نقل الحجاج ما قاله ابن الجعفي، فجاءه الحسين في جمع من أصحابه في هيبة ووقار، ولحية مخلطة بالشيب، فقال له بيقين:

- عجَّل عليَّ الشَّيب فعرفت أنه خضاب.

ثم التفت إليه ناصحاً:

- يا بن الحر، إنَّ أهل مصركم هذا كتبوا إليَّ إنهم مجتمعون على نصرتي، وسألوني القدوم عليهم، وليس الأمر على ما زعموا، وإنَّ عليك ذنوبًا كثيرة، فهل لك من توبة تمحو بها ذنوبك؟

فقال ابن الحر في خضوع:

- وما هي يا بن رسول الله؟

التفت إليه، وقال بحسم:

- تنصر ابن بنت نبيك، وتقاتل معه.

فالتفت ابن الحر، وقال هو يرتجف:

- والله، إنِّي لأعلم من شايعك كان السعيد في الآخرة، لكن نفسي لا تطاوعني على الموت، فخذ فرسي، فوالله ما طلبت عليها شيئا إلا لحِقتُه.

فتغير وجه الحسين، ونظر له بحدَّة:

- أما إذا رغبت بنفسك عنَّا، فلا حاجة لنا في فرسك ولا فيك "وما كنت متّخذ المضلين عضُدًا"، ولكن فِر فلا لنا ولا علينا، فوالله لا يسمع واعيتنا أحدٌ، ثم لا ينصرنا إلا أكبَّه الله على وجهه في نار جهنَّم!

ثم عاد الحسين إلى رحْلِه، وما هي إلا ساعة حتى اجتمع بـ "عمرو بن قيس المشرقي" وابن عمَّه، فالتفت إليهما:

- جئتما لنصرتي؟

ارتعدت فرائصهما، وقالا:

- إنا كثيرو العيال، وفي أيدينا بضائع للنَّاس، ولم ندر ماذا يكون، ونكره أن نضيع الأمانة.

فقال لهما الحسين محذِّراً:

- انطلقا، فلا تسمعا لي واعية، ولا تريا لي سوادًا، فإنَّه من سمع واعيتنا، أو رأى سوادنا فلم يجبنا أو يغثنا، كان حقًّا على الله –عزَّ وجلَّ– أن يكبَّه على منخريه في النَّار.

وفي آخر الليل أمر الحسين فتيانه بالاستقاء من الماء، ثم ارتحل من "قصر بني مقاتل"، وسار نحو "نينوى"، وبعد ساعة من الرحيل، خفق برأسه خفقة، ثم انتبه، وكان يكرر:

- إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين.

فأقبل إليه علي بن الحسين "الأكبر"، فقال مستفسرًا:

- يا أبه، ممَّ حمدت الله واسترجعت؟

نظر له الحسين بود وتسليم:

- يا بُني، إني خفقتُ برأسي خفقة، فَعَنَّ لي فارس على فرسه، وهو يقول: "القوم يسيرون والمنايا تسير بهم"، فعلمت أنَّها أنفسنا نُعِيت إلينا.

فتساءل الأكبر في عنفوان:

- يا أبتِ لا أراك الله سوءًا.. أولسنا على الحق؟

- بلى، والذي إليه مرجع العباد.

فقال الأكبر في ثبات وشموخ:

- يا أبتِ، إذًا لا نبالي أن نموت مُحِقّين!

اقترب منه الحسين، وربت على كتفه:

- جزاك الله من ولدٍ خيرَ ما جزى ولدًا عن والده.

بات الحسين وأهل بيته وأصحابه تلك الليلة في ترقُّب، ولما طلع الفجر، نزلوا فصلَّى بهم، ثمَّ عجَّل في ركوب المحامل، وأخذ يسير والحر يسايره، حتى انتهوا إلى "نينوى"، وبينما هم كذلك وصل "مالك بن النسر الكندي" قادمًا من الكوفة برسالة من عبيد الله بن زياد، ودون أن يسلِّم على الحسين، تقدم خطوات وسلم الحر ذلك الخطاب، فقرأه بلوعة:

- "أما بعد، فجَعجِع بالحسين حين يبلغك كتابي هذا، ويقدم عليك رسولي، ولا تُنزله إلا بالعراء في غير خضرة وعلى غير ماء، وقد أمرت رسولي أن يلزمك ولا يُفارقك؛ حتَّى يأتني بإنفاذك أمري والسلام".

فلما سمع أصحاب الحسين ما في الخطاب قالوا مستنكرين:

- إذن دعنا ننزل نينوى، أو الغاضريَّات، أو شفيَّة.

فقال لهم الحر وهو ينظر إلى مالك بن النسر مُتذمِّرًا:

- لا أستطيع، إنَّ الرَّجل عينٌ عليَّ.

تقدَّم "زهير بن القين" نحو الحسين، وقال بحماس:

- يا بن رسول الله، إنَّ قتال هؤلاء الساعة أهونُ علينا من قتال من يأتينا بعدهم، فلعمري ليأتينا ما لا قِبل لنا به!

أرخى الحسين عينيه:

- ما كنتُ لأبدأهم بقتال حتى يبدؤوني.

فنظر له زهير برأفة، وأشار بيده:

- سر بنا يا بن رسول الله إلى هذه القرية، فإنَّها حصينة، وهي على شاطئ الفرات، فإن منعونا قاتلناهم.

- ما اسمها؟

- العقر.

ردَّ الحسين مستعينًا بالله:

- اللهم إنِّي أعوذ بك من العقر.

ثم اقترح عليه نزول "كربلاء" على شاطئ الفرات، فقال الحسين، وقد ترقرقت عيناه بالدموع:

- اللهم إنِّي أعوذ بك من الكرب والبلاء.

الفصل الثاني

وقعة كربلاء

17

سار الحسين حتى نزل كربلاء في يوم الثلاثاء الثاني من محرَّم سنة 61 هـ، الثاني من أكتوبر عام 680 م، فسأل:

- ما اسم هذه الأرض؟

ردوا عليه بتأهُّب:

- كربلاءُ.

لبِس الغمُّ وجهه وقال:

- أرض كربٍ وبلاء.. ولقد مرَّ بها أبي عند مسيره إلى صفِّين، وأنا معه، فوقف فسأل عنها، فأُخبِر باسمِها، فقال: ها هنا محطُّ ركابهم، وها هنا مُهراق دمائهم، فَسُئِل عند ذلك فقال: "ثقلٌ لآل بيت محمدٍ ينزلون هاهنا".

ثم نظر إليهم رافعًا صوته:

- انزلوا هاهنا محطُّ رحالنا، ومناخ ركابنا، ومقتل رجالنا، ومسفك دمائنا، ومحلّ قبورنا.. هاهنا سبي حريمنا، بهذا حدَّثني جدِّي رسول الله (ص).

نزل أصحابه وحطُّوا الأثقال ناحية الفرات شرقي خيام الحسين، وضرب بنو هاشم خيامهم في الجانب الغربي منها، وضربت عشيرته خيامهم حول خيمته.

يبعث الحر بن يزيد الرياحي كتابًا لابن زياد يخبره بنزول الحسين أرض كربلاء، أما الحسين فجمع أهل بيته ونظر إليهم بشفقة، وبكى ورفع كفيه مخاطبًا بارئه، شاكياً إليه ظلمهم:

- اللهم إنَّا عترة نبيِّك محمد (ص)، وقد أُخرِجنا وطُردنا وأُزعجنا عن حرم جدِّنا، واعتدت بنو أمية علينا، اللهم فخذ لنا بحقِّنا، وانصرنا على القوم الظالمين.

ثم مشى الحسين ناحية أصحابه، وقام فيهم خطيبًا:

- "النَّاس عبيدُ الدُّنيا والدِّين لعقٌ على ألسنتهم، يحوطونه ما درّت معائشهم، فإذا مُحِّصوا بالبلاء قلَّ الدَّيانون".

ثم حمد الله، واسترسل:

- "أمّا بعد، فإنَّه قد نزل بنا من الأمر ما قد ترون، وإنَّ الدُّنيا قد تغيَّرت وتنكَّرت، وأدبر معروفها، واستمرت حذَّاء، ولم يبق منها إلا صُبابةٌ كصبابةِ الإناء، وخسيس عيشٍ كالمرعى الوبيل، ألا ترون إلى الحقِّ لا يُعمل به،

وإلى الباطل لا يُتناهى عنه؟ ليرغب المؤمن في لقاء ربِّه مُحقًّا، فإني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برمًا".

فقام "زهير بن القين البجلي"، وقال بثبات:

- قد سمعنا يا بن رسول الله مقالتك، ولو كانت الدنيا باقية؛ لآثرنا النهوض معك على الإقامة فيها.

ثم قام "برير بن خضير الهمداني المشرقي" متحدثًا عن بصيرة:

- لقد منَّ الله بك علينا أن نقاتل بين يديك، تُقَطَّع فيك أعضاؤنا، ثم يكون جدُّك يوم القيامة شفيعًا لنا.

ثم تحدث "نافع بن هلال" بحديث طويل، ومما قال:

- أنت اليوم مثل جدِّك محمد وأبيك علي، ابتُلوا بالمنافقين، ونُصِروا بالصادقين، فمن نكث عهده وخلع بيعته، فلن يضرَّ إلَّا نفسه، والله مغنٍ عنه، فسر بنا راشدًا معافًى مشرِّقًا إن شئت أو مغرِّبًا.

في الثالث من مُحَرَّم تصل رسالة من عبيد الله بن زياد إلى الحر الرياحي ردًّا على رسالته، يدعوه فيها إلى التضييق عليه للنزول على حكم يزيد بن معاوية، فلما قرأها الحسين رماها، وهو يقول:

- لا أفلح قومٌ اشتروا مرضاة المخلوق بسخط الخالق.

لم يسلم الحسين الرسول أي جواب، وكان ابن زياد قد كتب قبيل محرم عهدًا لعمر بن سعد بولاية "الرَّي وثغر دستبي والديلم"، وقد عسكر في "حمام أعين"، فأرسل له أن يرجع ويتَّجه إلى الحسين، فاستعفاه عمر، فهدده برد العهد، فطلب منه أن يمهله يومًا لينظر في الأمر ويأتيه بالجواب النهائي.

قضى "عمر بن سعد" تلك الليلة يستشير أصحابه، الذين نهوه عن حرب الحسين، ومنهم ابن أخته "حمزة بن المغيرة بن شعبة"، فظل يفكر، ثم أنشد:

أَأَتْرُك مُلك الرَّي والريُّ منيتي ... أم أرجع مأثومًا بقتل حســـينِ

وفي قتله النَّار التي ليس دونها ... حجابٌ ومُلكُ الرَّي قُرَّةُ عينِ

وفي الصَّباح ذهب لابن زياد ليكفيه قتال الحسين، لكن ابن زياد هدده بإرجاع العهد، فتنازل في الحال، وقال:

- فإِنيّ سائرٌ إليه غدًا لا محالة.

سار ابن سعد بأربعة آلاف رجل، حتى نزل أرض كربلاء في الثالث من المحرَّم.

قام الحسين في استشراف إلى المستقبل بشراء منطقة شاسعة من أرض كربلاء بستين ألف درهم، واشترط أن يسمح لزواره بزيارة قبره، وأن تتم ضيافتهم ثلاثة أيام!

في الرابع من محرم جمع ابن سعد جنوده، فعرض عليهم الذهاب إلى الحسين؛ ليسألوه عن عِلَّة مجيئه إلى هذه الأرض، فاعتذروا فأغلبهم ممن كاتبوه، إلا أن "كثير بن عبد الله الشعبي"، وكان فارسًا شجاعًا مُخادعًا، قال بضمير ميِّت:

- أنا أذهب إليه، وإن شئت لأفتكنَّ به!

فقال له ابن سعد مستنكرًا:

- ما أريدك أن تفتك به، ولكن آته فسله: ما الذي جاء به؟

فلمَّا وصل معسكر الحسين رآه "أبو ثمامة الصائدي"، فقال للحسين محذِّرًا:

- أصلحك الله يا أبا عبد الله، جاءك شرُّ أهل الأرض، وأجرأهم على دم، وأفتكهم.

ثم قام إليه أبو ثمامة، وقال له بشجاعة وحذر:

- ضع سيفك.

فكشر عن وجهه القبيح:

- لا والله ولا كرامة، إنَّما أنا رسول، فإن سمعتم منِّي بلَّغتكم ما أُرسلت به إليكم، وإلَّا انصرفتُ عنكم.

فأصر عليه أبو ثمامة بمسك قائم سيفه فلم يرضَ، ثم اختلفا، ولم يتنازل فاستبَّا، وعاد لعمر بن سعد، الذي أرسل خلَفاً له "قُرَّة بن قيس الحنظلي"، وهو معروف بحسن الرأي، فلما عرفه "حبيب الأسدي" استنكر عليه ذلك، فأقبل وسلَّم على الحسين، وبلَّغه رسالة عمر بن سعد، فرد عليه الحسين بشجاعة وإصرار:

- كتب إليَّ أهل مصركم أن أقدم، فإما إذا كرهتموني فإني أنصرف عنكم من حيث جئت.

ثم التفت حبيب بن مظاهر إلى الرسول لائمًا:

- ويحك يا قُرَّة، أين ترجع، إلى القوم الظالمين؟! انصر هذا الرجل الذي بآبائه آتاك الله الكرامة.

فرد قرَّة مرتبكًا:

- أرجع إلى صاحبي بجواب رسالته، وأرى رأيي.

رجع وأخبر ابن سعد بجواب الحسين، فقال ابن سعد مرعوبًا:

- أرجو أن يعافيني الله من أمره.

ثم كتب ابن سعد رسالة إلى عبيد الله بن زياد يخبره بما جاء بالحسين، وطلب بأن يتركوه لينصرف إذا كرهوه، فأنشد عبيد الله بن زياد:

الآن إذ علقـت مخـالبنـا بـه يرجو النجاة ولاتَ حين مناص

ثم بادر ابن زياد بإرسال كتاب إلى ابن سعد فيه صرامة وحزم:

"أما بعد، فقد بلغني كتابُك، وفهمت ما ذكرت، فاعرض على الحسين أن يبايع ليزيد بن معاوية هو وجميع أصحابه، فإذا فعل ذلك رأينا فيه رأينا والسلام".

لم يستجب ابن سعد لطلب ابن زياد لمعرفته برأي الحسين.

وفي اليوم ذاته صعد عبيد الله بن زياد منبر جامع الكوفة، وخطب فيهم يُمجِّد يزيد وآل أميَّة، ثم نزل ودعاهم لقتال الحسين تحت راية عمر بن سعد! ثم تحرك مع قواده ناحية "النُّخيلة".

أما رؤساء القبائل كالحصين بن نمير، وحجار بن أبجر، وشبث بن ربعي، وشمر بن ذي الجوشن، فساروا للانضمام تحت معسكر عمر بن سعد؛ لقتال الحسين في كربلاء!

18

في الخامس من محرم يصل عبيد الله بن زياد والي الكوفة والبصرة (العراقَين) إلى "النُّخيلة" بجانب شط الحلَّة في "بابل" ويعسكر فيها، ثم يطلب من شبث بن ربعي الالتحاق بمعسكر ابن سعد، وقد جعل "قيس الجعفي" على مسلحة قوامها خمسمائة فارس؛ ليمنع كل من يخرج من الكوفة يريد نصرة الحسين، ولكن بعضهم فضَّل المواجهة معه، كعامر بن أبي سلامة، وكان من صحابة علي بن أبي طالب، فاقتتل معه، واستطاع بإصراره الالتحاق بمعسكر الحسين في كربلاء.

توالت الرايات في نصرة معسكر يزيد، فخرج شمر بن ذي الجوشن في أربعة آلاف مقاتل، والحصين بن نمير في أربعة آلاف، ومضاير بن رهينة في ثلاثة آلاف، وكعب بن طلحة في ثلاثة آلاف، ويزيد بن الرَّكاب في ألفين، ونصر بن حرشة في ألفين، وحجَّار بن أبجر في ألف، وشبث بن ربعي في ألف، حتى وصل عددهم زهاء خمسة وعشرين ألفًا.

كان ابن زياد لا يزال معسكرا في "النُّخيْلة" يشرف على إرسال العساكر، حتى ملأوا القفار، واصطكت بهم كربلاء، فتجاوز من وصل ثلاثين ألف فارس؛ اجتمعوا لقتالِ سبط رسول الله، وسيد شباب أهل الجنة!!

وبينما كان بعضهم متحمسًا لقتال ابن الرسول، فرَّ البعض؛ كراهة مواجهته.

وفي هذا اليوم أرسل الحسين من كربلاء رسالة إلى أخيه محمد بن الحنفية وبني هاشم، يبدي فيها زهده في الدُّنيا، واستعداده الأكيد للتضحية بها وبكل ما يملك، وتعلقه بالآخرة والخلود الحقيقي جاء فيها "فكأن الدنيا لم تكن، وكأن الآخرة لم تزل والسلام".

في جوف الليل استأذن "حبيب بن مظاهر" الإمام الحسين، فجاء حي بني أسد ودعاهم لنصرته، فاستجاب له تسعون فارسًا، فخرج بهم، لكن أحد عملاء بني أسد سارع إلى "عمر بن سعد" فأخبره، فأرسل لهم ابن سعد جيشًا قوامه أربعمائة فارس بقيادة "الأزرق" تناوشوا معهم بجانب الفرات، واقتتلوا قتالًا شديدًا، حتى انهزموا ورجعوا إلى حيِّهم، وعندما وصل الأمر إلى الحسين استرجع.

في اليوم السابع من محرَّم أمر عبيد الله بن زياد بمنع الماء عن معسكر الحسين، فأرسل ابن سعد "عمرو بن الحجاج الزبيدي" في خمسمائة فارس، فنزلوا على شريعة نهر الفرات. يومها تقدَّم "عبد الله بن الحصين" من قبيلة بجيلة، فنادى بصوته القبيح:

- يا حسين، ألا تنظر إلى الماء كأنّه كبد السماء، والله لا تذوق منه قطرة حتى تموت عطشًا!

رفع الحسين يديه، وقال في خشوع:

- اللهم اقتله عطشًا، ولا تغفر له أبدًا.

كان ممن شهد الموقف "حميد بن مسلم"، الذي كان يرصد كل تفاصيل واقعة كربلاء، فروى أنه قد أصابه عطش شديد، فكان يشرب ولا يرتوي، فقال حميد باستغراب:

- أظنه سيهلك عطشًا قريبًا عاجلاً.

في اليوم الثامن من محرَّم شعر الحسين بعطش الأطفال والنساء وبقية أفراد معسكره، فاحتفر حفرة خلف الخيمة، فانبعث منها ماء شرب منه البعض حتى غارت، فكتب عمر بن سعد إلى أمير الكوفة عبيد الله بن زياد يخبره، فأمره بتضييق الخناق عليه، وألا يدعهم يذوقوا قطرةً من الماء، ففعل حتى

شارف الأطفال على الهلاك! فاستنكر عليه جماعة من معسكر الحسين فعله، منهم "يزيد بن الحصين"، الذي خاطب ابن سعد في لوم شديد:

- هذا الفرات تشرب منه الكلاب، وهذا الحسين ابن بنت رسول الله وأهل بيته عُطاشى، وأنت تزعم أنك تعرف الله ورسوله (ص)!

فأطرق إلى الأرض، ولم ينبس ببنت شفة.

على إثرها انطلق "برير بن خضير الهمداني" نحو ابن سعد قائد جيش يزيد، فقال مثل قوله، لكن ابن سعد قال في صلافة:

- تشير عليَّ يا برير بذلك، وكأنك تريدني أن أخسر "ولاية الرَّي"، فتصير إلى غيري، لا والله ما فعلت!

كان قلب الحسين كجمر الغضا من أثر العطش، ولكنه مع ذلك لم يكن يُفكِّر في نفسه لحظة واحدة، بل شغله عطش الأطفال والنساء وبقية أفراد المعسكر عن عطشه، فانتدب أخاه "ساقي العطاشى" و"حامل اللواء" "العباس بن علي" لجلب الماء، فلحق به ثلاثون فارسًا وعشرون راجلًا، حملوا معهم عشرين "قربة"، فاقتحموا نهر الفرات، حتى وصلوا الشريعة، يتقدمهم "نافع بن هلال المرادي"، فأحكم "عمرو بن الحجَّاج الزبيدي" الخناق على المعين؛ لمنع وصول الماء إلى الحسين وأصحابه، وكان في زهاء خمسمائة فارس، فعبس "العبَّاس" في وجهه، ورفع سيفه، واقتتل معهم

بمساندة أصحابه، حتى كشفوهم عن المشرعة، وملأوا "القرب"، وعادوا للمعسكر منتصرين.

19

في ليلة تاسوعاء تقدم الحسين بن علي بصحبة أخيه "العباس"، ومرافقة ابنه "عليٍّ الأكبر"، فاجتمع بمعسكر يزيد، فقال الحسين محتجًّا على ابن سعد:

- أتقاتلني وأنا ابن بنت مَن عَلِمت، ألا تكون معي وتدع هؤلاء، فإنَّه أقرب لك إلى الله؟!

فأجاب ابن سعد بِدناءة وخسَّة:

- أخاف أن تُهدم داري.

فردَّ عليه الحسين ردًّا مُفحمًا:

- أنا أبنيها لك.

كان يتذرع بأعذار واهية وقبيحة كوجهه المظلم، أبدى خوفه من استحواذهم على ضيعته، ومرة عياله، فلما رأى الحسين منه الصدود، رفع يديه ودعا عليه:

- ما لك؟ ذبحك الله على فراشك سريعًا عاجلًا، ولا غفر لك يوم حشرك ونشرك، فو الله إنّي لأرجو ألا تأكل من بُرّ العراق إلَّا يسيرًا.

فقال ابن سعد باستهزاء:

- في الشَّعير كفاية.

رأى الحسين أن لا فائدة من نصح ذلك الجلف، عبد الدينار، وعاد كل منهما إلى معسكره.

ما إن عاد ابن سعد إلى فسطاطه أخذ يرتجف، ثم زوَّر كتابًا وبعثه لابن زياد، وطلب منه أن يعفيه من القتال، وتعهَّد له أن يرجع الحسين إلى المكان الذي جاء منه، أو يسير إلى أحد الثغور، وأن يبايع يزيد، وعندما وصله الكتاب كاد يصدقه عبيد الله، لكن الشيطان الأنسي "شمر بن ذي الجوشن" حرَّضه على عزل ابن سعد، وأن يتولى القيادة بدلًا منه، فكتب ابن زياد كتابًا شديدًا لابن سعد، ومما جاء فيه:

"انظر، فإن نزل حسين وأصحابه على حكمي، فابعث بهم إليَّ سلمًا، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم، وتُمَثِّل بهم، فإنهم لذلك مُستحِقُّون، وإذا قتلت حسينًا، فأوطئ الخيل صدره وظهره.. ولست أرى أن هذا يضرُّ بعد الموت. فإن مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السَّامع المطيع، وإن أبيت فاعتزل عملنا وجندنا، وخلِّ بين شمر بن ذي الجوشن وبين المعسكر، فإنا قد أمرنا بذلك والسلام".

بعث ابن زياد بالكتاب مع الشَّمر، فأقبل حتى وصل كربلاء يوم التاسع من محرَّم، فسلَّمه ابن سعد، فنظر إليه بتشاؤم:

- ما لك، لا قرَّب الله دارك، وقبَّح الله ما جئت به، وإنِّي لأظن أنَّك الذي نهيته، وأفسدت علينا أمرنا.. واللهِ لا يستسلم حسين، فإن نفس أبيه لبين جنبيه.

نظر له الشمر، وقال بوقاحة:

- أخبرني ما أنت صانع؟ أتمضي لأمر أميرك، وإلَّا فخلِّ بيني وبين الجُند والعسكر؟!

نظر له ابن سعد بحنق:

- لا ولا كرامة لك. فأنا أتولى ذلك، فدونك فكن أنت على الرَّجَّالة.

وفي عصر يوم التَّاسع من المحرم زحف "عمر بن سعد" بجيشه، ونادى بصوته المجلجل:

- يا خيل الله اركبي، وبالجنَّة أبشري.

كان الحسين محتبيًا بسيفه، وقد خفق برأسه، فسمعت "زينب" صهيل الخيول وقرقعة السيوف، ووشوشة الجنود الزاحفة، فجاءت أخاها، وقالت له منبهة:

- يا أخي، أما تسمع هذه الأصوات قد اقتربت منَّا؟

رفع الحسين رأسه، قال بتسليم:

- إني رأيت رسول الله السَّاعة في المنام، وهو يقول: "إنَّك صائرٌ إلينا عن قريب".

لطمت وجهها، ثم صرخت:

- وا ويلتاه.

- ليس الويل لكِ يا أختاه.. رحمكِ الله.

ثم أقبل العباس متأهِّبًا:

- يا أخي، إذن أتاك القوم.

نظر له الحسين برأفة وحميَّة:

- اركب بنفسي أنت حتى تلقاهم، فتقول لهم: ما لكم وما بدا لكم، وماذا تريدون؟

ركب العبَّاس فرسه جاءهم في نحو عشرين فارسًا، وفيهم حبيب بن مظاهر الأسدي، وزهير بن القين فسألهم، فأشار "ابن سعد" على أحدهم ليجيب:

- جاء أمر الأمير عبيد الله بن زياد أن نعرض عليكم النُّزول على حكم يزيد، أو نناجزكم القتال.

نظر لهم العباس بريبة:

- لا تعجلوا حتى أرجع إلى أبي عبد الله الحسين، وأعرض عليه ما قُلتم.

وما لبث أن عاد إليهم يخبرهم بأن الحسين يستمهلهم العَشِيَّة، فتردد ابن سعد بوقف الزَّحف، فاستشار قومه، أما الشمر فأرجع الأمر إليه، فتقدم "عمرو بن الحجاج الزبيدي" وهو يقول متعجِّبًا:

- سبحان الله، والله لو كانوا من التُّرك أو الديلم وسألونا مثل ذلك لأجبناهم، فكيف وهم آل محمد (ص)؟!

ثم دعاه قيس بن الأشعث لمناجزتهم القتال يوم غد.

عاد "العبَّاس"، وكان بصحبته رسول ابن سعد، فرفع ذلك الشقي صوته مهددًا:

- يا أصحاب الحسين، إنَّا قد أجَّلناكم إلى غدٍ، فإن استسلمتم سرَّحنا بكم إلى الأمير ابن زياد، وإن أبيتم فلسنا بتاركيكم.

وفي ليلة العاشر جمع الحسين أصحابه، ثم وقف فيهم خطيبًا، فحمد الله وأثنى عليه، ومما قال:

- "أمَّا بعد، فلا أعلم أصحابًا أوفى ولا خيرًا من أصحابي، ولا أهل بيتٍ أبرَّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عنِّي خيرًا. ألا وإني لأظنُّ يومنا من هؤلاء الأعداء غدًا. ألا وإنِّي قد أذِنت لكم جميعًا، فانطلقوا في حلٍّ، ليس عليكم مِنِّي حرجٌ ولا ذِمام.

وهذا الليل قد غشيكم فاتَّخذوه جملًا، ثمَّ ليأخذ كل رجلٍ منكم بيد رجل من أهل بيتي، وتفرَّقوا في سواد الليل، وذروني وهؤلاء القوم، فإنَّهم لا يُريدون غيري، ولو أصابوني لذُهلوا عن طلب غيري".

فقال جمع من أهل بيته في بسالة وصمود، يتقدمهم العباس:

- ولِم نفعل ذلك؟ لنبقى بعدك؟ لا أرانا الله ذلك أبدًا.

نظر الحسين إلى بني عقيل، وقد غشيته سحابة حزن:

- حسبكم من القتل صاحبكم مسلم بن عقيل، فاذهبوا أنتم، فقد أذِنت لكم.

فردوا بثبات:

- لا والله يا بن رسول الله، ولكنَّا نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا، ونقاتل معك حتى نرد موردك، قبَّح الله العيش بعدك.

ثم قام مسلم بن عوسجة وفداه بنفسه، تبعه سعيد بن عبد الله الحنفي، وزهير بن القين، وبقية الأصحاب.

ثم قال برير:

- والله إنِّي لمستبشر بما نحن لاقون، والله إنَّ بيننا وبين الحور العين إلا أن يميل هؤلاء علينا بأسيافهم!

في الأثناء وصل خبر أسر محمد نجل بشر الحضرمي لأبيه، الذي كان في معسكر الحسين، فسمح له الإمام بالانصراف، فقال والدموع تترقرق في عينيه:

- أكلتني السِّباع حيًّا إن فارقتك.

فقال له الحسين برأفة:

- "أعط ابنك هذه الأثواب والبرود؛ ليستعين بها في فكاك أخيه".

ثم نظر لهم الحسين نظرة وداع وقال:

- إني غدًا أُقتل وتُقتلون كلّكم معي، ولا يبقى منكم أحدٌ إلَّا ولدي عليًّا زين العابدين؛ فلا ينقطع نسلي منه، وهو أبو أئمة ثمانية (من ولدي).

فابتهجوا واستبشروا:

- الحمد لله الذي أكرمنا بنصرك، وشرَّفنا بالقتل معك، أوَ لا نرضى أن نكون معك في درجتك؟

ثم قام ابن أخيه القاسم بن الحسن، وكان غلامًا لم يبلغ الحُلم، جسمه وعقله يبدوان أكبر من سنِّه، فسأل بشوق:

- وأنا فيمن يُقتل يا عم؟

أراد الحسين امتحان بصيرته فسأله:

- يا بُني كيف ترى طعم الموت؟

فقال بعشق:

- يا عم فيك أحلى من العسل.

- إي والله فداك عمُّك، إنَّك لأحدُ من يُقتل معي بعد أنْ تبلوَ ببلاءٍ عظيم.

ثم التفت إليهم، وقلبه يلتهب من جمر الفراق:

- وممن يُقتل غدًا ولدي الرَّضيع.

ففتح القاسم عينيه على مصراعيها:

- يا عم، أيصل العدوُّ إلى مُخيَّمنا، حتى يُقتل الرَّضيع عند أمِّه؟

احمر وجه الحسين حتى بدا كالشمس الطالعة:

- فداك عمُّك، يُقتل ابني عبد الله إذا جفَّت روحه عطشًا، وصرت إلى خيمنا فطلبت له ماءً ولبنًا.

ثم أمرهم الحسين أن يقربوا خيامهم، ويضموا مضاربهم، ويدخلوا الأطناب بعضها في بعض، ثم جاء بقصب من مكان منخفض وراءهم كأنه ساقية، وحفروا خندقًا، وألقوا فيه حطبًا وقصبًا؛ كي يشعلوها عندما يهجم عليهم أولئك الأوباش، فيأتوهم من وجه واحد.

ثم قاموا وتطهَّروا وتطيَّبوا، وصفُّوا أقدامهم يناجون ربَّهم بين قائم وقاعد، وراكع وساجد، كان لهم دويٌّ كدويِّ النَّحل.

جزاهم الحسين خيرًا، وانصرف إلى مضربه.

وبينما كانت السيدة زينب تُمرِّض السَّجاد، اعتزل الحسين في الخباء يُصلِح سيفه، وهو ينعى نفسه:

يا دهرُ أفٍّ لك من خلـــيل
كم لك بالإشـراق والأصـيلِ
من صـــاحبٍ أو طالبٍ قتيل
والـدَّهرُ لا يقنـــع بالبديـــل
وإنَّما الأمرُ إلى الجلـــــــيل
وكـلُّ حيٍّ ســـالكٌ سبيـــلِ
ما أقرب الوعد من الرَّحيلِ

كان يرددها مرتين أو ثلاث، فسمعه زين العابدين فخنقته العبرة، لكنه حبس دمعته وصمت، أما السيدة زينب فوثبت تجرُّ أذيالها، واقتحمت عليه خلوته وهي حاسرة، ونادت:

- وا ثكلاه، ليت الموت أعدمني الحياة، اليوم ماتت أمِّي فاطمة، وأبي علي، وأخي الحسن، يا خليفة الماضين، وثمال الباقين.

نظر إليها الحسين بدفء وحنان:

- يا أخيَّة، لا يذهبنَّ بحلمك الشَّيطان.

- بأبي أنت وأمي، استقلت نفسي فداك.

جمَّد الحسين دموعه في عينيه، فنظرت له زينب بتحسُّر:

- ردَّنا إلى حرم جدِّنا رسول الله (ص).

فقال مسلِّمًا:

- هيهات، لو تُرك القطا لغفا ونام.

ترقرقت الدموع من عينيها:

- يا ويلتاه، أفتغتصبُ نفسك اغتصابًا، فذلك أقرح لقلبي، وأشدُّ على نفسي.

ثم مشت خطوات، وهي تلطم على وجهها، ومدَّت يدها الطاهرة نحو السماء، وخرت مغشيًّا عليها.

مشى الحسين نحوها، فصبَّ الماء على وجهها حتى أفاقت، فقال لها يصبِّرها:

- يا أخيَّة، تعزَّي بعزاء الله، واعلمي أنَّ أهل الأرض يمُوتون، وأهل السَّماء لا يبقون، وأن كل شيء هالك إلا وجهه.

ثم واساها وعزاها بنحو ذلك، وأوصاها:

- يا أختاه، إنِّي أُقسم عليك، فأبرِّي قسمي، إذا أنا قُتلت، فلا تشُقِّي عليَّ جيبًا، ولا تخمشي عليَّ وجهًا، ولا تدعي عليَّ بالويل والثبور.

ثم أمسكها من يدها، وعاد بها إلى زين العابدين.

20

في تلك الليلة عبر بعض الأفراد من معسكر يزيد وانضموا لمعسكر الحسين، الذي كان يتلو: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (178) مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: 178–179].

فسمعها رجل من خيَّالة ابن سعد يُدعى "عبد الله بن شهر السبيعي"، فقال بسماجة:

- نحن وربِّ الكعبة الطيبون، ميَّزنا منكم.

فاستنكر عليه برير بن خضير:

- يا فاسق، أنت يجعلك الله في الطيبين؟

ثم دخل معه في جدال لا طائل من ورائه، فقال له برير بغضب:

- قبَّح الله رأيك على كلِّ حال. أنت سفيه.

ثم خرج الحسين من الخيام في جوف الليل، فتبعه "نافع بن هلال" خوفًا عليه، فسأله عن سبب خروجه، فقال بحكمة القائد:

- إنِّي خرجت أتفقد التلاع والروابي، مخافة أن تكون مكمنًا لهجوم الخيل يوم تحملون ويحملون.

وفي طرق العودة أخذ بيد نافع وقال له:

- هي هي والله، وعدٌ لا خلف فيه.

أراد الحسين لحظتها أن يسمع استعداد أفراد معسكره للقتال، ليرى الأجيال اللاحقة أي نوع من الصحابة التف حوله، وآمن بقضيته، فسأله:

- ألا تسلك بين هذين الجبلين ونحن في جوف الليل، وتنجو بنفسك؟

ارتعش بدن "نافع"، ثم خرَّ على قدمي أبي عبد الله الحسين يقبلهما، وهو يقول:

- إذًا لأمي الثكل، سيدي إن سيفي بألف وفرسي بمثله، فو الله الذي منَّ بك عليَّ، لا فارقتك حتى يكلَّا عن فري وجري.

انعطف الحسين إلى خيمة النساء، فأجهشت زينب بالبكاء:

- وا أخاه، واحسيناه، أشاهد مصرعك، وابتلي برعايتي هذه المذاعير من النِّساء، والقوم يا بن أمي كما تعلم ما هم عليه من الحقد القديم، ذلك خطبٌ جسيم، يعزُّ عليَّ مصرع هذه الفتية، وأقمار بني هاشم.

ثم نظرت إليه فزِعة:

- يا أخي، هل استعلمت من أصحابك نيَّاتهم؟ فإني أخاف أن يُسلموك عند الوثبة، واصطكاك الأسنَّة.

نظر الحسين لها وعيناه مغرورقان بالدموع:

- أما واللهِ، لقد بلوتُهم، فما وجدت فيهم إلَّا الأشوس الأقعس، يستأنسون بالمنيَّة دوني استئناس الطفل إلى محالب أمِّه.

عاد نافع ومعه حبيب، الذي نادى في خيام بني هاشم:

- يا أصحاب الحميَّة، ويا ليوث الكريهة.

فوثبوا من خيامهم كالليوث المنقضَّة على فريستها، يتقدَّمهم حامل اللواء أبو الفضل العبَّاس.

فقال لهم حبيب مستأسدًا:

- هلمُّوا لنواجه النسوة ونطيِّب خواطرهن.

تقدموا نحو خيامهمن، ورفعوا صوتهم مُسلِّمين عليهن، ثم صرخ حبيب:

- هذه صوارم فتيانكم، آلوا ألا يغمدُوها إلَّا في رقاب من يريد السوء بكم، وهذه أسِنَّة غلمانكم أقسموا ألا يُركزوها إلَّا في صدور من يُفرِّق ناديكم.

فاجتمع النِّسوة تتقدمهن العقيلة زينب، فقالت لهم مؤمِّلة:

- حاموا عن بنات رسول الله، وحرائر أمير المؤمنين.

أمَّنُوا على قولها، فاطمأنت نفوس المخدَّرات.

ثم وقف الحسين بينهم كالقمر في الليلة الظلماء، وقال لهم:

- ارفعوا رؤوسكم وانظروا.

كانوا ينظرون إلى منازلهم في الجنَّة، والحسين يبشرهم ويقول:

- هذا منزل فلان، وهذه درجة فلان.

ثم يحمِّسهم:

– يا أشاوس سيظهر يومًا قائمنا وينتقم لدمائنا.

فيسأله أحدهم مترقِّبًا:

- ومن قائمكم يا بن رسول الله؟

- السَّابع من ولد ابني محمد بن علي الباقر، وهو الحجَّة ابن الحسن بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي ابني، وهو الذي يغيبُ مدَّة طويلة، ثم يظهرُ ويملأ الأرض قسطًا وعدلًا بعدما تُملأ ظلمًا وجورًا.

يعود الحسين لخيمته يذكر الله على كل حال، تغفو عيناه عند السَّحر، يخفق برأسه خفقة ثم يستيقظ، فيقول مستبشرًا:

- أتعلمون ما رأيت في منامي؟

فسألوه بشغف:

- وما الذي رأيته يا بن رسول الله؟

- رأيت كأنّ كلابًا قد شدَّت عليَّ لتنهشني، وفيها كلبٌ أبقع كان أشدَّها عليَّ، وأظنُّ أن الذي يتولَّى قتلي رجلٌ أبرص، ثم رأيت جدِّي رسول الله (ص) ومعه جمع من أصحابه وهو يقول لي: "يا بنيَّ أنت شهيدُ آل محمدٍ، وقد استبشر بك أهلُ السماوات، وأهل الصَّفيح الأعلى، فليكُن إفطارُك عندي الليلة. عجِّل ولا تؤخِّر! فهذا مَلَكٌ قد نزل من السَّماء؛ ليأخذ دمك في قارورة خضراء".

21

في صباح يوم الأربعاء العاشر من محرم سنة 61 هـ، 10 أكتوبر 680 م، أقام الإمام الصلاة جماعة، وفور إتمام الصلاة رفع يديه بالدعاء:

" اللهم أنت ثقتي في كل كرب، ورجائي في كل شدة، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعُدة، كم من كرب يضعُف عنه الفؤاد، وتقلُّ فيه الحيلة وتعييني فيه الأمور، ويخذل فيه القريب والبعيد والصديق، ويشمت فيه العدو، أنزلته بك وشكوته إليك، راغبًا إليك فيه عمن سواك، ففرجته وكشفته وكفيتنيه، فأنت ولي كل نعمة، وصاحب كل حاجة، ومنتهى كل رغبة، فلك الحمد كثيرًا ولك المنُّ فاضلًا، وبنعمتك تتم الصالحات. يا معروفًا بالمعروف، يا من هو بالمعروف موصوف، آتني من معروفك معروفًا تغنيني به عن معروف من سواك برحمتك يا أرحم الراحمين".

ثم يمشي بضع خطوات، يصفُّ أصحابه، وكانوا يومها اثنين وثلاثين فارسًا، وأربعين راجلًا، فجعل زهير بن القين على الميمنة، وحبيب بن مظاهر الأسدي على الميسرة، وأعطى رايته العظمى أخاه العباس بن علي، وجعل

الخيام والخندق في ظهورهم، وأمر أن يُحرق القصب في النار؛ كي لا يأتيهم العدو من الخلف.

ثم ركب راحلته، وتقدَّم نحوهم فخطب فيهم:

– "أيُّها الناسُ، اسمعوا قَولي، ولا تعجَلُوا حتَّى أعِظَكُم بما هو حقٌّ لكمْ عليَّ، وحتَّى أعتذرَ إليكُم مِن مَقدَمي عليكُم، فإنْ قَبِلتُم عُذري وصدَّقتُم قَولي وأَعطيتموني النَّصَفَ من أنفسِكُم كُنتمْ بِذلكَ أسْعدَ، ولَم يكنْ لكمْ عليَّ سبيلٌ، وإنْ لمْ تَقبَلوا مِنِّي العُذرَ، ولمْ تُعطوني النَّصَفَ منْ أنفسِكم (فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ) (إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ)، فلمّا سمعَتِ النساءُ هذا منهُ صِحنَ وبَكَيْنَ، وارتفعَتْ أَصْواتُهُنَّ، فأرسلَ إليهنَّ أخاهُ العبَّاس، وابنَهُ عليًّا الأكبرَ، فقال بحسرة:

– سكِّتَاهُنَّ، فلعَمْري ليكثرُ بُكاؤهُنَّ.

يتقدم "عمر بن سعد" فيصفُّ هو الآخر معسكره، وكانوا زهاء ثلاثين ألفًا، فجعل "عمرو بن الحجَّاج الزبيدي" على الميمنة، و"شمر بن ذي الجوشن الضبابي" على الميسرة، وعلى الخيل "عزرة بن قيس الأحمسي"، وعلى الرَّجالة "شبث بن ربعي اليربوعي"، وأعطى رايته "دُريد" مولاه.

ثم أقبلوا يجولون حول معسكر الحسين، كانت النار تضطرم في القصب والحطب، فاقترب الشمر وهو يجري بفرسه، فرفع صوته التعيس مُتنمرًا:

- يا حسين استعجلت النَّار في الدُّنيا قبل يوم القيامة!

رفع الحسين رأسه مستنكرًا، وقال:

- كأنَّه شمر بن ذي الجوشن.

فردوا عليه:

- نعم يا مولاي هو.

فانبرى له الحسين مستبسلًا:

- يا بن راعية المعزى، أنت أولى بها صِليًّا.

يغتاظ مسلم بن عوسجة منه، يتقدَّم نحو الحسين:

- يا بن رسول الله، جُعلت فداك، ألا أرميه بسهم؟

يرفع الحسين يديه مانعًا له:

- لا ترمه، فإنِّي أكره أن أبدأهم بقتال.

يخرج زهير بن القين على فرسٍ ذنوب وهو شاكي السلاح، ثم ينذرهم بعذاب الله، وألا يوغلوا في غيّهم، وينصروا ابن بنت نبيّهم، ويذكرهم بما فعله أبوه من سفك دم حجر بن عدي، وقتل ابن زياد لمسلم بن عقيل وهاني بن عروة وجرهما في الأسواق، لكنَّهم لم يرتدعوا، بل سبُّوه ومجَّدوا في عبيد الله بن زياد، ثم قالوا في ضلال مبين:

- لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله بن زياد سلمًا.

فقال لهم ابن القين ناصحًا:

- عباد الله، إنَّ ولد "فاطمة" أحقُّ بالودِّ من ابن "سميَّة"، فإن لم تنصروهم، فأعيذكم بالله أن تقتلوهم، فخلُّوا بين هذا الرَّجل، وبين يزيد بن معاوية، فلعمري إنَّه ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين.

فاهتاج الشَّمر، ثم رماه بسهم وهو يقول غاضبًا:

- اسْكُت، أَسْكَتَ الله نأمتك، فلقد أبرمتنا بكثرة كلامك.

فنظر له زهير باستحقار، وقال في حميَّة:

- يا بن البوَّال على عقبيه، ما إيَّاك أُخاطب، إنَّما أنت بهيمة، والله ما أظنُّك تُحكِمُ من كتاب الله آيتين، فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم.

فاحتد الشمر:

- إن الله قاتلك وصاحِبك عن ساعة.

فارتسمت علامات الشجاعة على شفتيه:

- أفبالموت تُخوّفني؟، والله لَلموتُ معه، أحبُّ إليَّ من الخُلد معكم.

ثم أشاح بوجهه عنه، وأقبل عليهم:

- عباد الله، لا يغُرَّنَّكم عن دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهُه، فوالله لا تنال شفاعة محمد قومًا أهرقوا دماء ذريَّته وأهل بيته، وَقَتَلُوا منْ نَصَرهم، وذبَّ عن حريمهم.

فناداه رجل من أصحاب الحسين:

- يقول لك الحسين، فلعمري لئن كان مؤمن آل فرعون نصح قومه، وأبلغ في الدُّعاء، فلقد نصحتَ لهؤلاء، وأبلغتَ لو نفع النُّصح والإبلاغ.

يستأذن بُرير الهمداني الحسين، فيأذن له، فيصرخ فيهم:

- يا معشر النَّاس، إن الله بعث محمدًّا بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله وسراجًا منيرًا، وهذا ماء الفُرات تقعُ فيه خنازيرُ السَّواد وكلابُه، وقد حيل بينه وبين ابن بنت رسول الله، أفجزاءُ محمدٍ هذا؟

فقالوا في تبرُّم:

- يا بُرير، أكثرت الكلام، فوالله ليعطش الحسين كما عطش من كان قبله. ينصحهم، فيردون عليه بمثل ردّهم على زهير، ثم يدعوهم أن يتركوه يعود من حيث أتى، ويذكّرهم بكتبهم، واستعدادهم للتضحية في سبيل نصرته، وها هم يمنعون الماء عنه، فيردُّون عليه بحماقة:

- يا هذا، لا ندري ما تقول.

يتقدم بُرير، ويقول باطمئنان:

- الحمدُ لله الذي زادني فيكم بصيرة، اللهم إنِّي أبرأ إليك من فعال هؤلاء القوم، اللهم ألق بأسهم بينهم.

يرمونه بسهام كي يسكت، ويرجع من حيث أتى. عندها تقدَّم الحسين بن علي، فألقى عليهم خطبته الثالثة، ومما جاء فيها بعد أن حمد الله وأثنى عليه ونبههم على أحوال الدنيا:

- "أراكم قد اجتمعتُم على أمرٍ قد أسخطتُم الله عليكم.. أقررتم بالطاعة، وآمنتم بالرسول محمد (ص)، ثمَّ إنَّكم زحفتم إلى ذريَّته وعترته تُريدون قتلهم، لقد استحوذ عليكم الشَّيطان فأنساكم ذكر الله العظيم، فتبًّا لكم لما تُريدون، هؤلاء قومٌ كفروا بعد إيمانهم، فبُعدا للقوم الظالمين".

ارتبك عمر بن سعد، فقال في هلوسة:

- ويلكُم، كلِّموه، فإنَّه ابن أبيه، والله لو وقف فيكم هكذا يومًا جديدًا لما قُطع ولما حُصر!

فيتقدم نحوه الشمر للتَّعمِيَة عليه:

- يا حسين، ما هذا الذي تقول؟ أفهِمنا حتى نفهم.

يخطب فيهم الحسين مبيِّنًا لهم نسبه، ثم يقيم عليهم الحجة:

- "فإن صدقتموني فيما أقول، فهو الحق.. وإن كذَّبتموني، فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم. سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري، وأبا سعيد الخدري، وسهل بن سعد السَّاعدي، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك يُخبروكم أنهم سمِعُوا هذه المقالة من رسول الله (ص) لي ولأخي. أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟!

فقال الشمر في مكر وخبث:

- هو يعبُد الله على حرف إن كان يدري ما يقول.

فغضب منه حبيب بن مظاهر:

- والله، إنِّي لأراك تعبدُ الله على سبعين حرف، وأشهد أنك صادق، ما تدري ما تقول، قد طبع الله على قلبك.

فأخذ الحسين يلوم معسكر البغي:

- "فإن كنتُم في شكٍّ من ذلك، أفَتَشُكُّونَ أنِّي ابن بنت نبيكم؟! فو الله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم..
ويحكم، أفتطلبوني بقتيلٍ منكم قتلته، أو مالٍ لكم استهلكته، أو بقصاصٍ من جراحة؟!

صمتوا ولم يحيروا جوابًا.

يرفع الحسين صوته، ويناديهم بحرقة:

- "يا شبث بن رُبعي، ويا حجَّار بن أبجر، ويا قيس بن الأشعث، ويا يزيد بن الحارث، ألم تكتُبوا إليَّ: "أن قد أينعت الثِّمار، واخضرَّ الجناب، وإنّما تقدم على جُندٍ لك مجندة، فأقْبِل!"
فكذبوه! فيرد عليهم باستغراب:
- سبحان الله، بلى والله لقد فعلتم.
يطلب منهم الحسين أن يتركوه يذهب دون أن يتورطوا بدمه، لكن ابن الأشعث أصر على بيعة يزيد، فانبرى الحسين قائلًا بصلابة وثبات:

- لا والله، لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذَّليل، ولا أقرُّ إقرار العبيد. ثم تلا عليهم: "إِنِّي عذت بربي وربكم أن ترجمون، أعوذ بربي وربكم من كل مُتكبِّرٍ لا يؤمن بيوم الحساب". [الدخان: 20-21].

ينيخ راحلته، ويدعو "عقبة بن سمعان" فيعقلها، لكن القوم أخذوا يزحفون على معسكره، فاقترب "عبد الله بن حوزة" وصاح في استخفاف:

- أفيكم حسين؟

لم يجبه أحد استحقارًا له، فأعاد القول ثانيًا وثالثًا، فقال له أحدهم:

- هذا الحسين فما تريد منه؟!

فقال بصلافة لا نظير لها:

- يا حسين أبشر بالنَّار.

فيردَّ عليه بشجاعة وثقة:

- كذِبتَ، بل أقدِم على ربٍّ غفور كريم مطاع شفيع، فمن أنت؟!

- أنا ابن حوزة.

يرفع الحسين يديه نحو السماء، حتى يبان بياض إبطيهما:

- اللهم حُزه إلى النَّار.

غضب ابن حوزة، فأقحم الفرس في النهر، فتعلَّقت قدمه بالرِّكاب، وجالت به وسط الميدان، فسقط عنها، فانقطعت ساقُه وفخذه، وبقي جانبه الآخر مُعلَّقا بالرِّكاب، يضرب به الفرس كل حجر وشجر، ثم تلقيه

في النار المشتعلة في الخندق، التي أمر الحسين بإشعالها؛ كي يحمي عياله وأهل بيته من الأعداء!

يرى مسروق بن وائل، ما حلَّ بصاحبه إثر دعاء الحسين عليه، وكان قد جاء لقطع رأسه الشريف؛ ليصيب به منزلة عند عبيد الله بن زياد، فيفرَّ في الحال من المعركة، ويُحدِّث بصدق:

- لقد رأيت من أهل هذا البيت شيئًا، لا أقاتلهم أبدًا.

ولم يمر كبير وقت حتى ينفر الفرس من ابن أبي جويرية المزني، يلقيه في النار، فيحترق كصاحبه!

ثم برز تميم بن الحصين الفزاري، فنادى بقلب قاسٍ:

- يا حسين، ويا أصحاب الحسين، أما ترون إلى ماء الفرات يلوح كأنه بطون الحيَّات، والله لا ذقتم منه قطرة، حتى تذوقوا الموت جزعًا.

فيرد الحسين ممتعضًا:

- هذا وأبوه من أهل النَّار، اللهَّم اقتل هذا عطشًا في هذا اليوم.

كان الناس يراقبونه، فرأوه كيف اختنق بالعطش، وسقط من فوق فرسه، فدهسته الخيل بسنابكها، فمات.

يتقدم ابن الأشعث مستهزئاً:

- يا حسين بن فاطمة، أيَّة حرمة لك من رسول الله ليست لغيرك؟!

فيتلو الحسين عليه في خشوع:

- ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (34)﴾ [آل عمران: 33–34].

ثم ينظر له باستغراب، ويُكمل بفخْر:

- والله إن محمدًا لمن آل إبراهيم، وإن العترة الهادية لمن آل محمد، مَنْ الرجل؟!

فقيل له:

- محمد بن الأشعث بن قيس الكندي.

فيرفع كفيه إلى السماء:

- "اللهم أرِ محمد بن الأشعث ذُلًّا في هذا اليوم".

أخذوا يراقبونه ليروا تحقق دعاء الحسين، فرأوه يخرج من معسكر ابن سعد ليتبرز، ثم سمعوه يصرخ صرخة منكرة، فعلموا أن عقربًا قد لدغه، فأخذ يتلوى، حتى مات بادي العورة!

ثم خرج إليهم "يزيد بن الحصين الهمداني"، فدعاهم أن يسمحوا لأبي عبد الله وأصحابه ببلوغ الماء، لكنهم صدُّوه، فشكره الحسين على حسن صنيعه، ثم قال وهو متكئ على سيفه:

- اقعد يا يزيد.

وسرعان ما ركب صهوة جواده، ثم خطب فيهم خطبته الرابعة، فحمد الله أثنى عليه، ثم دعاهم للاحتكام إلى كتاب الله وعترته:

- "يا قوم إن بيني وبينكم كتاب الله وسنَّة جدِّي رسول الله (ص)".

ثم أشهدهم على نفسه وأهل بيته.

صدقوه، لكنهم قالوا بتعجرف وغرور:

- قد علمنا ذلك كله، ونحنُ غير تاركيك، حتى تذوق الموت عطشًا!

لم يكترث وواصل خطبته بفصاحة جده وأبيه، ومما قال:

- "تبًّا لكم أيتها الجماعة وَتَرَحًا، أحين استصرختُمونا والهين فأصرخناكم مُوجِفين، سللتم علينا سيفًا لنا في أيمانكم، وحششتُم علينا نارًا اقتدحناها على عدوِّنا وعدوِّكم، فأصبحتم إلبًا لأعدائكم على أوليائكم.. فسُحقًا لكم يا عبيد الأمة، وشُذاذ الأحزاب، ونبذةِ الكتاب.. "الذين جعلُوا القرآن عضين" [الحجر: 91].

- ، "لبئس ما قدَّمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون" [المائدة: 80].. أجل–والله– غدر فيكم قديم.. تآزرت عليه فروعكم، وثبت في قُلوبكم، وغشيت صُدوركم، فكنتم أخبث ثمرٍ شجيٍّ للنَّاظر، وأكلةِ الغاضب، ألا لعنةُ الله على النَّاكثين.

ألا وإنَّ الدَّعي ابن الدَّعي قد ركز بين اثنتين، بين السلَّة والذلة، وهيهات منَّا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسُوله والمؤمنون، وحجورٌ طابت وطهُرت، وأنوفٌ حميَّة، ونفوسٌ أبيَّة من أن نُؤثر طاعة اللِّئام على مصارع الكرام.

ألا وقد أعذرت وأنذرت، ألا وإني زاحفٌ بهذه الأسرة على قلَّة العدد وكثرة العدو، وخذلان النَّاصر، ثم أنشد ومما قال:

فإن نُهزم فهزَّامـــــون قدمًا وإن نهزم فغير مُهـزَّمينـا

ومـا إن طبَّنـا جبنٌ، ولكن منـايـانـا ودولـة آخرينـا

ثم يقول لهم مُنذرًا:

- "أما والله، لا تلبثُون بعدها إلا كريثما يُركَب الفرس، حتى تدور بكُم دوران الرَّحى، وتقلق بكم المحور، عهدٌ عهده إليَّ أبِي عن جدِّي رسول الله "فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غُمَّة"[يونس: 71].

ثم يرفع يديه إلى السَّماء:

- "اللهم احبس عنهم قطر السماء، وابعث عليهم سنين كسنيِّ يوسف، وسلِّط عليهم غُلام ثقيف، يسقيهم كأسًا مُصبَّرة، فإنَّهم كذَّبونا وخذلونا، وأنت ربَّنا عليك توكَّلنا وإليك أنبنا، وإليك المصير".

22

يستدعى الحسين "عمر بن سعد"، فيأتي بتململ، وهو كاره لقاءه، فيباغته أبو عبد الله بتحذير، وتنبُّؤ بمستقبله المظلم:

- أتزعمُ أنَّك تقتلني ويُوليّك الدَّعيُّ ابنُ الدَّعي بلاد "الرَّي وجرجان"؟! واللهِ لا تتهنَّأ بذلك أبدًا، عهدٌ معهودٌ، فاصنع ما أنت صانع، فإنَّك لا تفرح بعدي بدنيا ولا آخرة، وكأنَّني برأسك على قصبةٍ، قد نُصِب بالكُوفة يتراماه الصِّبيان، ويتَّخذونه غرضًا بينهم.

فانصرف ابن سعد وهو غاضب، ثم نادى بأصحابه:

- ماذا تنتظرون به؟! احملوا بأجمعكم، إنَّما هي أكلة واحدة.

لما علم الحسين أنهم لن يتراجعوا، وبعد أن أقام عليهم الحجة وخطب فيهم أكثر من مرَّة، نادى بأعلى صوته:

- أما من مغيث يُغيثنا لوجه الله، أما من ذابٍّ يذبُّ عن حرم رسول الله.

كان الحر ينظر للحسين فسمع النداء، اهتزَّت فرائصه، فأقبل على عمر بن سعد، فسأله باستنكار:

- أمقاتلٌ أنت هذا الرَّجل؟

فنظر إليه بحماقة، وأجاب بخبث:

- إي واللهِ، قتالًا أيسرُه أن تسقط فيه الرؤوس، وتطيح الأيدي!

يحاول "الحُرُّ" استعطافه:

- أما لكم في واحدةٍ من الخِصال التي عرَضها عليكُم رضًا؟

يبتسم ابتسامةً صفراء:

- لو كان الأمرُ إليَّ لفعلتُ، ولكنَّ أميرُك قد أبى.

يتركه ويقف وسط المقاتلين وبجانبه رجل من قومه يُدعى "قرَّة بن قيس"، فيسأله الحرُّ:

- هل سقيت فرسك اليوم؟

ينظر إليه بشكٍّ وريبة:

-لا. لم أسقِه.

ولم يزد على ذلك، ثم أخذ "الحر" يدنو من معسكر الحسين شيئًا فشيئًا، فرآه رجل آخر من أهله يُدعى "المهاجر بن أوس"، فسأله بتهيُّب:

- أتُريد أن تحمل يا أبا يزيد؟

سكت الحر، وأخذته رعدة، فارتاع أوس:

- واللهِ إنَّ أمرك لَمُريب، والله ما رأيت منك في موقف -قط- مثل ما أراه الآن، ولو قيل لي من أشجع أهل الكوفة لما عدوتُك، فما هذا الذي أرى منك؟!

نزلت دموعه على خدَّيه، لكن رعدته قد توقَّفت، وقال بشجاعة منقطعة النَّظير:

- إنِّي –واللهِ– أُخيِّرُ نفسي بين الجنَّة والنَّار، ولا أختار على الجنَّة شيئًا، ولو أُحرقت وقُطِّعتُ.

يضرب جواده ويسير نحو معسكر الحسين، كان يضع يديه على رأسه، وقد قلب درقته، مُنكِّسًا رُمحه كهيأة المستأمِن، يقترب مطأطئًا رأسه، تذكر لحظتها جعجعته بهوادج الحسين، وإجبارهم على أخذ موقع لا ماء فيه ولا كلأ، حتى إذا اقترب رفع صوته في خوف ورجاء:

- اللهم إليك أُنيب، فتب عليَّ، فقد أرعبتُ قلوب أوليائك، وأولاد بنت نبيِّك.

ثم يقترب نحو الحسين، فيسلَّم عليه، ويقول معترفًا منيبًا:

- جعلني الله فداك، أنا صاحبُك الذي حبستُك عن الرُّجوع، وسايرتُك في الطَّريق، وجعجعت بك في هذا المكان، ووالله الذي لا إله إلا هو، ما ظننتُ أنَّ القوم يردُّون عليك ما عرضت عليهم أبدًا، ولا يبلغون منك هذه المنزلة.. وإني قد جئتُك تائبًا إلى ربِّي مما كان منِّي، ومواسيًا لك بنفسي حتى أموت بين يديك، أفترى لي من ذلك توبة؟

فيقول له في تسامح هاشمي، وقد تناسى ما كان منه:

- نعم يتوب الله عليك ويغفر لك، أعد ذكر اسمك.

- أنا الحرُّ بن يزيد.

ينظر له الحسين بود وإكبار:

- أنت الحرُّ كما سمتك أمُّك، أنت الحرُّ إن شاء الله في الدُّنيا والآخرة.. انزل.

فيرد الحر في خضوع:

- أنا لك فارسًا خيرٌ منِّي راجلًا، أُقاتلهم على فرسي ساعة، وإلى النُّزول ما يصير آخرُ أمري.

يبتسم له برضًا:

- اصنع –رحمك الله– ما بدا لك.

لم ينتظر الحرُّ طويلًا، بل توجَّه نحو القوم، فخطب فيهم مناديًا بأعلى صوته، ومما قال:

- يا أهل الكوفة، لأمِّكم الهبل والعبر إذا دعوتُم هذا العبد الصَّالح، حتى إذا أتاكم أسلمتموه، وزعمتم أنَّكم قاتلوا أنفسكم دونه، ثم عدوتُم عليه لتقتُلوه.. فأصبح كالأسير في أيديكم.. وحلأتُموه ونساءه وصبيته وأصحابه من ماء الفرات الجاري، الَّذي يشربُ منه اليهود والنصارى والمجُوس، وتمرغ فيه خنازير السَّواد وكلابها.. بئسما خلَّفتم محمدًا في ذريَّته.

ثم دعاهم للتوبة، فحملوا عليه ورماه الرَّجالة بالنبل، فتقهقر ورجع نحو الحسين ووقف أمامه.

23

يتقدم عمرُ بن سعد، وهو مكشِّرٌ عن أنيابه نحو حامل راية جيش الكوفة:

- يا دريدُ، ادنُ رايتَك.

أدناها، ولم يلبث أن وضع سهْمًا في كبدِ قوسه، ثم رفعه، وشدَّ ساعده:

- اشهدوا لي عند الأمير أنِّي أوَّل من رمى.

تبعه الرُّماة، فصوَّبوا سهامَهم نحو معسكر الحسين، فأقبلت السِّهام كأنها رش المطر، فلم يبقَ أحد إلا أصابه جرح منها.

يرخي الحسين عينيه بتسليم، ثم يتقدَّم في ثبات:

- قوموا –رحمكم الله– إلى الموت الذي لا بدَّ منه، فإنَّ هذه السِّهام رُسل القوم إليكم. "إنَّ الله قد أذِن في قتلكم اليوم وقتلي".

ثم يضرب على كريمته مُحذِّراً:

- اشتد غضب الله على "اليهود" إذ جعلوا له ولدًا، واشتد غضبه على "النّصارى" إذ جعلوه ثالث ثلاثة، واشتدَّ غضبه على "المجوس" إذ عبدوا الشَّمس والقمر، واشتدَّ غضبه على "قوم" اتَّفقت كلمتهم على قتل ابن بنت نبيِّهم، أما والله لا أجيبُكم إلى شيء مما تُريدون، حتى ألقى الله تعالى.

يدعو الحسين أصحابه لرفع شعار "يا محمَّد"، فيشتبك المعسكران، في حرب ضروس غير متكافئة عددًا وعدَّةً، ترتفع الغبرة، ويجلجل صهيل الخيل، وترتفع أصوات "يا محمد" من أنصاره، أما أولئك الأوباش فرفعوا شعار "يا لثارات بدر"!

كان الرجل منهم بألف، يقاتلون برباطة جأش كمن باع الحياة، ولم يرضَ بغير الآخرة بدلًا، يتهافتون على الأعداء في ولع واستماتة، "ويستأنسون بالموت استئناس الطفل بمحالب أمِّه"، يسارعون إلى حصد تلك الأرواح الشريرة كليوث الشَّرى، لا يبرز لهم أحد إلا قطفوا روحه من بين ضلوعه، فاستحر القتل في صفوف جيش ابن سعد، فبُهِت "عمرو بن الحجاج الزبيدي" لهول ما رأى، فصرخ فيهم:

- يا حمقى! أتدرون منْ تُقاتلون؟ فُرسان المِصر، قومًا مستميتين، لا يبرُزنَّ لهُم منكم أحدٌ، فإنهم قليلٌ وقلَّما يبقَون، واللهِ لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم.

ينظر له عمر بن سعد بدهاء:

- صدقت رأي حصيف.

ثم يصدر عمر بن سعد أوامره ألا يبارز رجل من جيشه أي رجلٍ منهم أبدًا!

لم يخافوا ولم يتراجعوا قيد أنملة، كانوا يتنافسون في تقديم أنفسهم قربانًا بين يديه، فاقتتلوا ساعة من النّهار قتالًا شديدًا لا يأتونهم إلا من المقدمة، نظرًا لوجود الخندق الذي أَضْرَم الحسين النار فيه ليحمي خيامه، ومع ذلك لم تسلم تلك الخيام من النّبال والسهام التي تعمَّد ابن سعد توجيه رماته إليها؛ حتى خرقوها تخريقًا، ثم اقترب "شمر بن ذي الجوشن"، وطعن فسطاط الحسين بِرُمحِه، وهو ينادي:

- عليَّ بالنَّار حتى أحرق هذا البيت على أهله!

يعلو الصياح من النساء والأطفال، يخرجن من الفسطاط، فيستنكر عليه الحسين فعله الأهوج، ثم يدعو عليه أن يحرقه الله بالنار.

يتقدم حميد بن مسلم نحو الشمر:

- سبحان الله! أتريد أن تُعذِّب بعذاب الله، وتقتُل النساء والولدان؟! إن في قتلك الرِّجال ما تكفي به أميرك.

ثم يدنو منه "شبث بن ربعي"، فيقول له باشمئزاز:

- يا شمر! ما رأيت مَقالًا أسوء من قولك، ولا موقفًا أقبح من موقفك، أمرعبًا للنساء صرت؟!

يستحي منه، فيتوقف لحظات، لكن زهير بن القين كان له بالمرصاد، فشدَّ عليه مع عشرة من رجال الحسين، فكشفوهم عن البيوت، حتى صرعوا أبا عزة الضبابي، فاضطر شمر ومن معه للانصراف.

استمر فرسان الهيجاء في القتال، لم يتراجعوا أو ينكصوا على أعقابهم، حملوا على معسكر ابن سعد حملة رجل واحد، وأعملوا سيوفهم فيهم، فكشفوهم من كل صوب.

يحمل عليهم شمر من الميسرة فيثبتون، ولمَّا رأى "عروة بن قيس" ذلك وهو قائدهم، بعث أحد رجاله، ويُدعى "عبد الرحمن بن حصين" إلى أمير الجيش "عمر بن سعد" فأطلعه على الوضع عن كثَب، فبعث له في الحال خمسمائة من الرُّماة، يتقدمهم "الحصين بن نمير"، فدنوا من أصحاب الحسين ورشقوهم، ولكثرة السهام تمكنوا من عقر خُيولهم، التي كانت تربو على ثلاثين خيلًا، فارتفعت الغبرة، وأصبحوا رجالة بعد أن كانوا خيَّالة!

أصيبوا بجراح بليغة، لقد خاضوا معركة شديدة البأس، فصالوا وجالوا في الميدان، ضربوا بالسيوف وطعنوا برماحهم الحسينية، لكن كثرة الأعداء أجهدوهم، فتساقطوا واحدًا تلو الآخر، وما هي إلا ساعة، حتى ارتقى أكثر من خمسين شهيدًا في الحملة الأولى، جلُّهم من الكوفة والبصرة، إلى

رحمة الله في سبيل الدفاع عن الحق، أما أولئك القساة الجفاة، فلم يكن يبان فيهم النقص لكثرتهم.

وممن سقط "الأدهم بن أميَّة العبدي البصري"، الذي التحق بالحسين من مكة المكرمة، وأميَّة بن سعد الطائي وجاء من الكوفة، وبشر بن عمرو الحضرمي، وكان ابنه قد وقع أسيرًا في الري، إلا أنَّه قاتل حتى قُتِل، ومنهم جابر بن الحجاج التميمي، وكان مع جيش ابن سعد فتحوَّل إلى معسكر الحسين، وجبلة بن علي الشيباني، وهو ممن شهد صفين مع أمير المؤمنين، وجنادة بن كعب الأنصاري، وقد قتل هو وابنه في تلك المعركة، وجندب بن حجير الخولاني، وكان من وجهاء الموالين في الكوفة، ومن أصحاب أمير المؤمنين، وجوين بن مالك بن قيس الضبعي، وجاء مع جيش ابن سعد، ثم تحول للقتال في صف الحسين حتى وقع شهيدًا، والحارث بن امرؤ القيس الكندي، والحارث بن النبهان، وحباب بن الحارث السلماني الأزدي، والحجاج بن زيد السعدي، والحلَّاس بن عمر الراسبي، وكان قائدًا للشرطة في حكومة أمير المؤمنين، وزاهر بن عمرو الكندي مولى عمرو بن الحمق الخزاعي، وزهير بن بشر الخثعمي، وزهير بن سليم الأزدي، وقد جاء مع جيش ابن سعد، وفي ليلة العاشر تحوَّل لمعسكر الحسين، وسالم مولى عامر بن مسلم، وسالم بن عمرو، وكان من أنصار مسلم، وقد قُبِض عليه إلا أنَّه فرَّ، والتحق بالحسين حتى نال الشهادة، وسوار بن أبي حمير

الفهم، وقد جرح ووقع أسيرًا لكنه استشهد لاحقًا، وشبيب بن عبد الله النهشلي، وعائد بن مجمع، وقد التحق بالحسين في زبالة، وعامر بن مسلم، وعبد الله بن بشير، وكان من ضمن جيش بن سعد، لكنه قبل بدء القتال التحق بالحسين، ويزيد بن ثبيط العبدي، ونجليه عبد الله وعبيد الله، وعبد الرحمن بن عبد ربه الأنصاري الخزرجي، وكان من خُلَّص صحابة أمير المؤمنين، وعبد الرحمن بن مسعود، وكان قد خرج مع جيش ابن سعد، وما إن وصل كربلاء تحوَّل لمعسكر الحسين، وعمار بن حسَّان الطائي، وعمار بن أبي سلامة الدلائي، وهو ممن أدرك الرسول (ص)، وقد شهد مع "عليّ" حروبه الثلاثة: الجمل وصفين والنهروان، وعمرو بن أبي ضبيعة التميمي، وكان فارسًا شجاعًا، وعمران بن كعب بن حارث الأشجعي، وعمرو بن خالد بن حكيم الأزدي، وكان من أنصار مسلم، فلما قُتِل التحق بالحسين، وجاهد حتى وقع شهيدًا، والقاسم بن حبيب الأزدي، وكان قد خرج مع جيش ابن سعد، وما إن حطَّت ركابه كربلاء حتى التحق بالحسين، وقاسط بن زهير التغلبي، وكان هو وأخواه من أصحاب أمير المؤمنين، وقعنب بن عمرو النمري، وكردوس بن زهير التغلبي، وكنانة بن عتيق التغلبي، وكان عابدًا وقارئًا للقرآن، ومجمع بن عبد الله العائذي، ومسلم بن كثير الأزدي، وكان من التابعين، وقد أُصيب في رجله في صف جيش أمير المؤمنين علي، ومسعود بن الحجاج، ونصر بن أبي نيزر، وقد

التحق بالحسين في مكة المكرمة، ونعيم بن عجلان الأنصاري، وكان إلى جانب "علي" في صفِّين، وممن استشهد عمر بن جندب الحضرمي، وعمر بن خالد الصيداوي من بني أسد.

وممن استشهد عمرو بن مطاع الجعفي، وعمير بن عبد الله المذحجي، وغيلان بن عبد الرحمن، و"قارب" مولى الحسين، والقاسم بن الحارث، وقرَّة بن أبي قرَّة الغفاري، وقيس بن عبد الله الهمداني، ومالك بن دودان، ومالك بن عبد الله الجابري، ومسلم مولى عامر بن مسلم، ومسلم بن كناد، ومنيع بن زياد. وهفهاف بن مهند الراسبي، ويحيى بن سليم المازني، ويزيد بن الحصين الهمداني، ويزيد بن زياد، ويزيد بن مهاجر.

24

يبرز وهب بن عبد الله الكلبي، وقد جاء من الكوفة مع أمه وزوجته لنصرة الحسين، كان نصرانيًّا، فأسلم على يديه. كانت أمه مؤمنة بنهج الحسين، لم تتوقف عن حثّه على القتال، أما زوجته فكانت في بادئ الأمر مترددة، فقالت مرعوبة:

- بالله عليك لا تفجعني في نفسك.

إلا أنها لما رأت وحدة الحسين، وسمعت واعيته تقطَّع قلبها، فدعته إلى عدم التقصير في نُصرته، بل حملت عمود الخيمة، وأقبلت نحوه لتشد من أزره:

- فِداك أبي وأمّي قاتل دون الطيبين، حرم رسول رب العالمين.

يعود لها ويحاول إرجاعها، فتمسّكت بثوبه:

- لن أعود دون أن أموت معك.

فيقول لها الحسين في لطف:

- جُزيتُم من أهل بيتٍ خيرًا. ارجعي إلى النِّساء يرحمك الله.

كان وهب فارسًا مهيبًا، حمل عليهم وقتل ثمانية من فرسانهم الأشداء، ثم رجع إلى أمِّه فرحاً مسرورًا:

- يا أماه أرضيت؟

نزلت دموعها على خدها، ثم اقتربت منه، ومسحت على كتفه:

- لا والله ما رضيت، حتَّى تُقتَل بين يدي الحسين.

يعود وهب ويكرَّ عليهم كانقضاض الذئب على المعزى، فيقاتلهم قتال من عاف الحياة، وهو ينشد:

إن تُنكروني فـأنا ابن الكلـب

ســـوف تروني وترون ضـــربي

وحملتي وصـــولتي في الحرب

أُدرك ثأري بعد ثار صحبـــــي

وأدفع الكرب أمـام الكرب

ليس جهادي في الوغى باللعب

يقتل منهم تسعة عشر فارسًا، واثني عشر راجلًا، وكان ينشد فيهم:

إني زعـيـم لـك أم وهـب

بالطَّعن فيهم تارةً والضـــربِ

ضـــرب غلام موقنٍ بالرَّب
حتى يـذُوق القوم مُرَّ الحرب
إني امرؤٌ ذو مِرَّةٍ وغضـــب
حسـبي إلهي من عليمٍ حسـبي

يقاتل حتى تُقطع يمينه، لم يبالِ يواصل قتاله حتى تُقطع شماله، يخرُّ صريعًا مُلطَّخًا بدمه، تأتي زوجته؛ لتمسح الدم عن وجهه، وهي تقول بحسرة:

- ليتني ألحق بك أيها القديس.

سمعها شمر، فابتسم، فبدا كالخنزير اللاهث، فدعا غلامه لقتلها، فحمل عمودًا من حديد، ثم تقدّم بحذر، وشدخها على رأسها، ففارقت الحياة على صدر زوجها، ثم رمى برأسه نحو معسكر الحسين.

لما رأت أمَّه ما حدث لابنها وزوجته، تناولت سيفه وبرزت لقتالهم، فاقترب منها الحسين، وقال لها مطمئنًا:

- يا أم وهب، اجلسي فقد وضع الله الجهاد عن النِّساء، إنَّك وابنك مع جدِّي محمد في الجنَّة.

يبرز عبد الله بن عمير الكلبي، وكان رجُلًا أسمرَ طويلًا، شديد الساعدين، بعيد ما بين المنكبين، يُعدُّ من الفرسان الأشاوس، وهو من خُلَّص صحابة

أمير المؤمنين علي، ومن أتباع سيد شباب أهل الجنة الحسين بن علي، ولما علم بوصوله كربلاء قال:

- والله كُنت على جهاد أهل الشرك حريصًا، وإني لأرجو ألا يكون جهاد هؤلاء الذين يغزون ابن بنت نبيِّهم أيسر ثوابًا.

يخرج حذرًا من الكوفة عند منتصف الليل مع زوجته، ويلتحق بركب الحسين، فيصل في الثامن من محرَّم، ولما حان يوم العاشر من محرَّم، يبرز ببسالة فيصرع يسار مولى زياد بن أبي سفيان، ورجلا آخر، فيسانده الأصحاب في هجومهم الجماعي، حتى أردى اثنين آخرين وسقطا قتيلين، فشدَّ عليه "سالم" مولى عبيد الله بن زياد، فبادره بضربة اتقاها الكلبي، فأطارت أصابع كفَّه اليُسرى، لكنه لم يستسلم، وظل يقاتلهم قتالًا عظيمًا، حتى صرعه.

لم يلبث الكلبي أن سقط قتيلًا، فخرجت امرأته، وجلست على مصرعه، وأخذت تمسح الدماء والتراب عن وجهه، وهي تقول:

- هنيئًا لك الجنَّة.

فالتفت شمر بن ذي الجوشن نحو غلامه رستم، وأمره بحقد دفين:

- يا غلام اضرب رأسها بالعمود.

فشدخ رأسها، وماتت في الحال.

ثم حمل عمرو بن الحجاج الزبيدي على رجال الحسين، فتقدم مسلم بن عوسجة الأسدي، ويُكنى أبا حجل، كان رجلًا طاعنًا في السن، ويعدُّه البعض من أصحاب رسول الله (ص)، شجاعًا عابدًا زاهدًا، وهو ممن انضم لحركة مسلم بن عقيل قبل مقتله، إلا أن عبيد الله بن زياد استطاع وضع العيون عليه، فكان "معقل" ينقل ما يدور في اجتماعات مسلم بشيوخ الكوفة.

كان ابن عوسجة من ضمن من هاجم قصر الإمارة عند اعتقالهم لهاني بن عروة، وقد استطاع الفرار واللحوق بالحسين، وأصبح من خُلَّص أتباعه وخدمته، وقد خيرهم الحسين بالانصراف ليلة العاشر من محرم إلا أنه وقف، وقال بشجاعة العارف:

- أنحن نخلّي عنك، ولما نعذر أمام الله في أداء حقِّك؟! أما والله، حتى أكسر في صدورهم رُمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائِمُهُ في يدي، ولا أُفارقك، ولو لم يكن معي سلاحٌ أُقاتلهم به، لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك.

وتجلَّى دفاعه عن الحق عند هجوم شمر بن ذي الجوشن على الخيام، وأراد لحظتها أن يرميه بسهم إلا أن الحسين قال له برأفة:

- لا ترمه؛ فإني أكره أن أبدأهم بقتال.

يحمل عمرو بن الحجاج الزبيدي وأصحابه في ميمنة جيش عمر بن سعد على فرسان الهيجاء من نحو الفرات، فيقاتلهم مسلم قتال الأبطال، ترتفع الغبرة، فإذا بمسلم قد خر صريعًا، فمشى إليه الحسين، وكان به رمق من الحياة فقال متحسرًا عليه:

- رحمك الله يا مسلم بن عوسجة.

ثم وقف مخاطبًا القتلى:

- صبرًا بني الكرام، فما الموت إلا قنطرة تعبر بكم إلى الجنان.

ثم تلا بصوت جهوري مؤثر:

- ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 23].

يدنو منه حبيب بن مظاهر الأسدي، ويقول والكآبة مرتسمة على محياه:

- عزَّ عليَّ مصرعك يا مُسلم، أبشِر بالجنة.

فأدار مسلم بعينه ناحيته، وهو يقول بصوت ضعيف:

- بشَّرك الله بخير.

ثم التفت إليه حبيب ثانية:

- لولا أني أعلم أني في أثرك لاحقٌ بك من ساعتي هذه؛ لأحببت أن توصيني بكل ما أهمَّك.

فرفع مسلم سبَّابته نحو الحسين، وقال بصوت خافت لا يكاد يُسمع:

- أُوصيك بهذا أن تموت دونه.

فرد عليه حبيب مطمئنًا:

- أفعل ورب الكعبة.

كان حبيب من أصحاب رسول الله (ص)، ومن خاصة أصحاب علي أمير المؤمنين، وموضع سرِّه، وأحد مسؤولي "شرطة الخميس"، ثم أصبح من أتباع الحسن، وهو ممن كاتب الحسين؛ ليقدِم إلى الكوفة، ومن أوائل من بايعوا سفيره مسلم بن عقيل، وساهم في انضمام نخبة من مقاتلي قبيلة بني أسد في صف الحسين، وقد جعله الحسين على ميسرة معسكره، وقد داعب أصحابه في كربلاء، فقال له برير:

- يا أخي، ليست هذه ساعة ضحكٍ!

فنظر له والابتسامة تعلو محياه البهي:

- فأيُّ موضعٍ أحقُّ من هذا بالسرور، والله ما هو إلا أن تميل علينا هذه الطَّغامُ بسيُوفهم، فنعانق الحور العين.

25

شهد أبو ثمامة الصائدي الموقف، فاقترب من الحسين:

- يا أبا عبد الله نفسي لنفسك الفداء.. لا والله لا تُقتل حتى أُقتل دونك، لكني أحب أن ألقى الله وقد صليت الفريضة، فقد زالت الشمس.

رفع الحسين رأسه، ونظر له بإكبار:

- ذكرت الصلاة، جعلك الله من المصلِّين الذَّاكرين. نعم هذا أوَّل وقتها.

ثم ينظر إليهم، ويرفع صوته مجلجلًا:

- سلوهم أن يكفُّوا عنا حتى نُصلِّي.

سمع الحصين بن تميم مقولة أبا عبد الله، فقال في صلافة وتعجْرُف:

- إنَّها لا تُقبل!

فتغيَّرت ألوان حبيب بن مظاهر:

- لا تُقبل! زعمت أن الصَّلاة من آل رسول الله لا تُقبل، وتُقبل منك يا خَمَّار؟!

ثم حمل عليهم، وهو يرتجز بأبياته البطولية:

أنا حبيب وأبي مُظـــــــاهر

فارسُ هيجاء وحرب تُســـعرُ

أنتُـــم أعـــدُّ عدَّة وأكثـــرُ

ونحـنُ أوفـى منـكمُ وأصـبرُ

ونحن أعلى حجـة وأظهر

حقًّا وأتقـــى منكـم وأعـذرُ

فحمل عليه الحصين بن تميم، فتقدم نحوه حبيب وضرب وجه فرسه بالسيف، فشبَّ منه وحمله أصحابه فأسندوه، ثم قاتلهم قتالًا شديدًا، وقتل منهم مقتلة عظيمة، فحمل عليه رجل من بني تميم فطعته بالرمح، ثم ضربه الحصين بن نمير على رأسه، ففلق هامته، فوقع على الأرض يخور في دمه، فنزل التميمي واحتزَّ رأسه، فقال له ابن نمير، وهو يفتخر:

- أنا شريك في قتله.

تنازع مع التميمي على رأس حبيب، وكانت الغلبة للحصين بن نمير الذي أخذ الرأس، وعلقه في عنق فرسه، وجال في المعسكر، كي يعرف الناس أنه كان شريكًا في مقتله، ثم سلمه الرأس ثانية، ونظر له بابتسامة فجَّة:

- خذ الرأس لعبيد الله بن زياد، فلا حاجة لي فيما تُعطاه!

هدَّ مقتل حبيب أبا عبد الله، فاسترجع كثيرًا، وقال وقلبه يعتصر الألم:

- عند الله أحتسب نفسي، وحماة أصحابي.

ثم يرفع صوته مؤبِّناً:

- لله درُّك يا حبيب، لقد كنت فاضلًا تختم القرآن في ليلة واحدة.

ثم برز عمرو بن قرظة الأنصاري، للقتال وهو ينشد:

قد علمت كتيبة الأنصار

أنِّي سأحمي حوزة الذمار

ضرب غلام غير نكسٍ شاري

دون حسين مهجتي وداري

فتقدم وقاتل ببسالة، وكان يتلقى السهام بصدره وجبهته، كي لا تصل إلى أبي عبد الله، فلمَّا أُثخن بالجراح، التفت إلى الحسين:

- أوفيت يا بن رسول الله؟

فنظر له الحسين برضًا:

- نعم. أنت أمامي في الجنَّة، فأقرئ رسول الله مني السلام، وأعلمه أني في الأثر.

كان الحر بن يزيد الرياحي شريفًا في قومه، وقد اختار أن يكون في صف الأحرار، ولما قُتل "حبيب" تقدم نحو القوم فشد عليهم، وكان "زهير بن القين" يحمي ظهره، فكان إذا شدَّ أحدهما واحتوشوه، شد الآخر كي يخلصه من فكِّهم، ثم أنشد الحر الرِّياحي في حماس:

آليـت لا أُقتَـل حتى أقتِلا

ولن أُصـــاب اليوم إلا مُقبِلا

أضربهم بالسَّيف ضربًا مُفصلا

لا نـاكلًا عنـهم ولا مـهلـلا

كان يقاتل ببسالة حتى ضُربت أذن فرسه بالسيف، فنزلت الدماء على عينيه فلم يبصر، فبرز له سفيان التميمي، وكان يتوعد الحر بالقتل، إلا أن الحر عاجله بضربة فقتله، فتقدم أحد الرماة فوجَّه سهمًا لفرس الحر فعقره، فوثب الحرّ من الفرس، وكأنَّه ليث وبيده السيف، فقاتلهم راجلًا، وهو يقول:

إن تعقروا بي فـأنا ابن الحرِّ

أشـــجع من ذي لبـدة هزبر

ولســـــتُ بالخوار عنـد الكرِّ

لكننـي الثابـــت عنـــد الفرِّ

فقتل منهم نيفًا وأربعين رجلًا، وهو يرتجز:

إني أنا الحرُّ ومـأوى الضَّـــيفِ

أضـــربُ في أعناقكم بالسَّـــيفِ

عن خير من حلَّ بوادي الخيف

أضـربـــــكم ولا أرى من حيفِ

فشدُّوا عليه من كل ناحية، فوقع صريعًا، فحملوه حتى وضعوه بين يدي الحسين، فجعل يمسح التراب عن وجهه، ولا يزال به رمق، فقال له:

- أنت الحرُّ كما سمَّتك أمُّك، أنت الحرُّ في الدُّنيا، وأنت الحرُّ في الآخرة.

ابتسم الحرُّ وعندها أنشد أحد أصحاب الحسين، أو علي بن الحسين:

لـنِـعـم الحـرُّ حُـرُّ بـني رياحِ
صـــبورٌ عند مشـــتبك الرِّماح
ونعم الحرّ إذ نادى حســـينٌ
فجـــاد بنفســـه عنـد الصِّياحِ

26

كان جون مولى أبي ذر الغفاري عبدًا أسود، وقد صحب الحسين من مكة إلى كربلاء، وسمح له بالانصراف صبيحة يوم العاشر:

- يا جون، أنت في إذن منِّي، فإنما تبعتنا طلبًا للعافية، فلا تبتلِ بطريقنا.

إلا أنه ردَّ بإصرار وامتنان:

- يا بن رسول الله، أنا في الرَّخاء ألحس قصاعكم، وفي الشدَّة أخذلكم؟! والله إنَّ ريحي لمنتن، وإنَّ حسبي للئيم، ولوني أسود، فتنفَّس عليَّ بالجنة، فيطيب ريحي، ويشرف حسبي، ويبيضَّ وجهي. لا والله لا أُفارقكم حتى يختلط هذا الدم الأسودُ مع دمائكم.

فأذن له الحسين، وصار يرقب صولاته وجولاته، وهو يدعو له، فقاتلهم وهو ينشد:

كيف ترى الفُجَّار ضربَ الأسودِ
بالمشـــــرفي الـقــاطع المُـهـنَّـدِ
بالسَّـــيفِ صـــلتًا عن بني محمدِ
أذبُّ عنهم باللســـــــــان واليدِ
أرجـو بــذاك الفـوزَ يـوم المـوردِ

من الإلـــــــــه الواحدِ المُوحَّدِ

إذ لا شـــفيع عنـدهُ كـأحمـدِ

قاتل ببسالة حتى قتل خمسةً وعشرين رجلًا منهم حتى قُتل. فوقف الإمام على جسده الطاهر، ثم رفع يديه بالدعاء له:

- اللهم بيض وجهه، وطيّب ريحه، واحشره مع الأبرار، وعرّف بينه وبين محمد وآل محمد.

ثم تقدم عمرو بن خالد الصيداوي، وقد التحق بالحسين مع غلامه سعد، ونافع المرادي، ومجمع العائذي في منزل يُدعى "عذيب الهجانات" بإرشاد من الطرمَّاح عندما كان يسير في طريقه إلى الكوفة، هجم عمرو مع سعد وجابر في يوم العاشر على جيش ابن سعد، حتى حوصروا من الأعداء، فأشار الحسين لأبي الفضل العباس بفك حصارهم، فحمل عليهم وضربهم بسيفه الحيدري، حتى استنقذهم، وقد أصيبوا بجراحات كثيرة.

يقترب عمرو بن خالد من الحسين:

- يا أبا عبد الله، جُعلت فداك، قد هممت أن ألحق بأصحابك، وكرهت أن أتخلَّف فأراك وحيدًا بين أهلك قتيلًا.

يبتسم ويأذن له بالقتال:

- تقدَّم، فإنا لاحقون بك عن ساعة.

يتقدم ذلك الضرغام ويقاتل بشجاعة، حتى يسقط قتيلًا.

كان حنظلة بن أسعد الشبامي الهمداني، من وجهاء الموالين في الكوفة، معلمًا للقرآن، شجاعًا مقدامًا، جعل نفسه درعًا واقيًا للإمام، وكان فيهم كمؤمن آل فرعون، وقف وتلا عليهم مُحذِّرًا:

- ﴿يَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ، مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ...﴾ [غافر: 30–31].

ثم التفت إلى الحسين مستأذنًا:

- أفلا نروحُ إلى ربِّنا ونلحق بأصحابنا؟

ينظر له الحسين بامتنان:

- بل رُح إلى ما هو خيرٌ لك من الدُّنيا وما فيها، وإلى مُلكٍ لا يبلى.

فقاتل قتال الأبطال حتى سقط شهيدًا.

أمر الحسين زهير بن القين، وسعيد بن عبد الله الحنفي أن يتقدَّما بنصف من تخلَّف معه؛ ليحموهم من الأمام لمعرفته بدناءة أولئك الأرجاس، ثم صلى بهم في الظهر صلاة الخوف جماعة قصرًا.

كان سعيد بن عبد الله الحنفي ممن دعا الحسين إلى الكوفة، وكان من رواد دار المختار بن أبي عبيدة الثقفي، وقد التف حول سفير الحسين "مسلم بن عقيل"، وكان يدعو الناس إلى بيعته، وبعد مقتله التحق بالحسين، وفي

ليلة العاشر عندما خيَّرهم الحسين بالانصراف أو البقاء، رد في قوة إيمان يهز الجبال:

- والله لو علمتُ أنِّي أُقتل، ثم أحيا، ثمَّ أُحرق حيًّا، ثُمَّ أُذرى، يُفعل ذلك بي سبعين مرة، ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك!

كان سعيد يصدُّ السهام، ليحمي الحسين أثناء صلاته بأصحابه، حتى شك جسده ثلاثة عشر سهمًا، وأثخن بالجراحات من ضرب السيوف وطعن الرماح، فخرَّ مُضرَّجًا بدمائه، وقبيل خروج روحه الطاهرة رفع طرفه إلى السماء ودعا عليهم:

- اللهم العنهم لعن عاد وثمود، اللهم أبلغ نبيك عني السلام، وأبلغه ما لقيت من ألم الجراح، فإني أردت ثوابك في نصر ذرية نبيك.

ثم قضى نحبه شهيدًا على أولئك القوم الظالمين.

في يوم التاسع كان أولئك القوم يُذكِّرون زهير بن القين بأنه عثماني الهوى، إلا أنه رد عليهم دون تردد بأنه قد أدرك مقام الحسين، ثم أبدى استعداده أن يكون له درعًا واقيًا، وفي ليلة العاشر عندما خيَّرهم الحسين بالانصراف يرد ببصيرة:

- واللهِ، لوددت أني قُتلت، ثم نُشرت، ثم قُتلتُ حتى أُقتل كذا ألف قتلة، وأن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك، وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك.

وفي صبيحة يوم العاشر من المحرم يجعله الحسين قائدًا على الميمنة، وعندما يحين وقت صلاة الخوف يقف مع سعيد بن عبد الله الحنفي لحماية الحسين أثناء الصلاة، وما إن انفتل من صلاته، ذهب ليدافع عن بنات الرسالة بالذب عن خيامهم، فطرد شمر بن ذي الجوشن، ثم أنشد:

ثم تقدم وقتل منهم تسعة عشر رجلًا، وهو يقول:

اليوم نلقى جـدَّك النَّبيـا

وحســـنًا والمرتضـــى عليًّا

وذا الجنـاحين الفتى الكمِيًّـا

ثم أخذ يربت على منكب الحسين، وهو يقول:

أنا زهـير وأنا ابـن الـقـينِ أذبُّ بالسـيف عن حسـينِ

أَقدِم هُديـــــت هاديًا مهديا

فالـــيوم تلقـــى جدَّك النبيًّا

وحســـنًا والمرتضـــى عليا

وذا الجنـاحين الفتى الكميًّـا

وأســـد الله الشـــهيد الحيًّا

قاتلهم قتال الأبطال، فشدَّ عليه كثير بن عبد الله الشعبي، ومهاجر بن أوس، فخرَّ صريعًا يسبح في دمه الزكي، فوقف عليه الحسين، وهو يقول بحرارة:

- لا يبعدنَّك الله يا زهير، ولعن الله قاتلك، لعن الذين مسخهم قردة وخنازير!

كان شوذب مولى شاكر من محدثي الموالين، فارسًا شجاعًا، وقد سأله عابس عما في نفسه أن يصنع، فقال ببسالة:

- أقاتل معك دون ابن بنت رسول الله حتى أُقتَل.

فجزاه عابس خيرًا، ثم جاء ذلك الشاب نحو الحسين، فقال:

- السلام عليك يا أبا عبد الله ورحمة الله وبركاته، أستودعك الله وأسترعيك.

تقدم بعدها نحو المعركة، ودافع بكل قوته حتى قُتل.

كان "عابس بي أبي شبيب الشَّاكري" من وجهاء الكوفة، خطيبًا ناسكًا، من خواص أصحاب علي بن أبي طالب، وقد جُرح في صفين في جبينه، ومن أشجع أصحاب الحسين، أسدًا مغوارًا، ذهب يوم العاشر نحوه، وقال ببسالة:

- يا أبا عبد الله، والله ما أقدر على أن أدفع عنك القتل والضَّيم بشيء أعزَّ عليَّ من نفسي، فعليك السلام.

فتقدم يقاتلهم فتحاماه أولئك الأوغاد لشجاعته، وصرخ فيهم:

- ألا رجل لرجل؟!

فقال ربيع بن تميم الحارثي:

- أيها الناس هذا أسد الأسود، هذا ابن شبيب، لا يخرجنَّ إليه أحد منكم.

وعندما رأى عمر بن سعد ذلك، دعاهم لرشقه بالحجارة، فلما رأى ذلك استبشر، وألقى درعه ومغفره! ثم شد عليهم، فكان يطرد أكثر من مئتين، ثم انعطفوا عليه، فقتلوه، وقطعوا رأسه، كل منهم يقول بأنَّه قتله، فقال لهم ابن سعد:

- لا تختصموا، هذا لم يقتله سِنانٌ واحد.

27

كان "برير بن خضير الهمداني المشرقي" من شيوخ القراء ومعلمي القرآن، بل أقرأ أهل زمانه، العارفين بمعانيه وأحكامه، ومن خاصة أصحاب أمير المؤمنين، شجاعًا، زاهدًا، ذا بصيرة، متكلمًا بارعًا، وخطيبًا مُفوَّهًا، وقد التحق بالحسين في مكة المكرمة، وفي يوم العاشر "باهله" يزيد بن معقل من بني عميرة بن ربيعة أن يقتل المحق منهم المبطل، ثم برز كل واحد منهما لصاحبه، فاختلفا في ضربتين، فأُصيب برير بضربة خفيفة، إلا أن بريرًا ضربه ضربة قوية قدَّت المِغفر، وبلغت الدماغ، فهوى كأنَّما خرَّ من شاهق، وكان سيف ابن خضير ثابتًا في رأسه! فتقدم نحو الميدان وهو ينشد:

أنا بـريـر وأبي خضـــــير لا خير فيمن ليس فيه خيرُ

فقاتلهم ببسالة كمن باع الحياة، حتى قتل منهم ثلاثين رجلًا، فحمل عليه رضي بن منقذ العبدي، فاعتنق برير، فاعتركا ساعة، ثم إن برير قعد على صدره، فقال رضي:

- أين أهل المِصاع والدفاع!

فتقدم نحوه "كعب بن جابر الأزدي"، فطعنه بالرمح في ظهره، فلما أحس برير بحرارة الطعنة برك على رضي وجذع طرف أنفه، ثم أقبل كعب ثانية، وضربه بسيفه فخرَّ برير صريعًا.

ثم تقدّم نافع بن هلال الجملي من عشيرة مذحج ذات الأصول اليمنية، وكان ممن روى عن أمير المؤمنين علي، وشهد معركة الجمل وصفين والنهروان، وقد شارك في جلب الماء إلى الخيام مع العباس، وكان يرتجز ويقول:

أنا الغلام اليمني الجملي
ديني على دين حُسين بن علي
أنْ أُقتَل اليوم فهذا أملي
فذاك رأيي وألاقي عملي

فقاتل قتال الأبطال حتى رضخوه بالحجارة، وكسروا يده، وأصابوه بجراحات كثيرة، ثم قبض عليه الشمر، وجاء به إلى عمر بن سعد، فأمره بقتله.

جاء الغفاريان عبد الله وعبد الرحمن ابنا عُروة، وكانا من شجعان الكوفة وأشرافها، فاقتربا من الحسين يوم العاشر وسلما عليه ثم قالا:

- قد حازنا العدوُّ إليك، فأحببنا أن نُقتل بين يديك.

فرحب بهما الحسين، ثم قال لهما بود:

- ادنيا مني.

دنيا منه، وأخذا يقاتلان ببسالة، وأنشد أحدهما يقول:

قـد علمـت حقًّـا بنو غفـار

وخنـــدفٍ بعـــــد بنـــي نزار

لنضـــربنَّ معشـــر الفُجَّـار

بكل عضـبٍ وصـارمٍ بتَّـــــار

يا قوم ذودوا عن بني الأحرارِ

بالمشـــرفيِّ والقنا الخطّـــــارِ

فقاتلا قتالًا شديدًا، حتى سقطا شهيدين.

ثم جاء الجابريان "سيف بن الحارث بن سريع"، و"مالك بن عبد بن سريع"، وكانا أبناء عمومة، وهما يبكيان، ثم قالا بصوتٍ مُتهدِّج:

- جعلنا الله فداك، والله ما على أنفسنا نبكي، ولكنا نبكي عليك نراك قد أُحيط بك، ولا نقدرُ على أن نمنعك.

فقال الحسين مقدرًا لهما تضحيتهما:

- جزاكما الله يا بني أخي بوجودكما ومواساتكما إياي بأنفسكما أحسن جزاء المُتَّقين.

فتقدما نحو الميدان وقاتلا بشجاعة حتى وقعا صريعين.

كان "أبو ثمامة" عمرو بن عبد الله الصائدي فطنًا ذكيًا، من أصحاب أمير المؤمنين علِي ثم الحسن، وقد كاتب الحسين، وأصبح من أصحاب مسلم بن عقيل، وعيَّنه قائدًا على ربع تميم وهمدان، التحق بالحسين، ومنع "كُثير" المعروف بالفتك من الدخول على أبي عبد الله مُسلَّحًا، وهو من ذكَّر الحسين بالصلاة، وبعد إتمامها، استأذنه بالقتال ضد الأعداء، فسمح له، فدخل وهو يرتجز:

عزاءٌ لآل المصـــطفى وبنـاتـه على حبس خير النَّاس سبط محمدِ
عـزاءٌ لـزهـراء الـنـبي وزوجـهـا خـــزانــة علـم الله من بعـد أحمدِ
عزاءٌ لأهل الشرق والغرب كُلِّهم وحُزنًا على حبس الحسين المسددِ

فقاتلهم قتال الأبطال، ثم اشتبك مع قيس بن عبد الله، ووقع قتيلًا مُضرَّجًا بدمه.

خرج أنس بن الحارث بن كاهل الأسدي من الكوفة واتجه لنصرة الحسين، وكان من صحابة رسول الله (ص)، وقد روى عنه أنَّه قال: "إن ابني هذا يُقتل بأرض كربلاء، فمن شهد ذلك منكم، فلينصره".

تقدم في يوم العاشر نحو الميدان، وهو ينشد:

قـد علِمـت كـاهِلهـا ودودانِ
والخنـدفيـون وقيـسُ عَـيلانِ
بأن قـومـي آفـة لـلأقـران
يا قوم كونوا كـأســود خَفَّـانِ
واسـتقبلوا القوم بضـربٍ الآن
آل علي شيـــــــــعة الرحمنِ
وآل حربٍ شـــيعة الشـــيطانِ

فجاهدهم جهاد الأبطال، حتى قتل منهم ثمانية عشر رجُلًا، فوقع شهيدًا.

استعدَّ عمرو بن جنادة الأنصاري للقتال، وكان صبيًّا لا يتجاوز عمره إحدى عشرة سنة، وقد استشهد أبوه قبله، إلا أن والدته "أم عمرو" ألبسته لامة الحرب، وقالت له بشجاعة:

- يا بني، اخرج قاتل بين يدي ابن رسول الله.

خرج الغلام، وجاء إلى الحسين يستأذنه، إلا أنَّه لم يأذن له رأفة به وبأمِّه، وقال:

- هذا شاب قُتل أبوه، ولعلَّ أمَّه تكره خروجه.

لكن الشاب رد عليه بحماسة:

- أمي أمرتني بنصرتك.

فأذن له، فقاتل حتى قُتل، وقُطع رأسه ورُمي لأمه، فأخذته وضربت به الأعداء، إلا أن الحسين أمر بعودتها إلى الخيام.

وعندما حان وقت الصلاة أمر أبو عبد الله الحسين الحجاج بن مسروق الجعفي مبعوثه إلى عبيد الله بن الحر الجعفي؛ ليأتي إلى نصرته، وفي يوم عاشوراء كان مؤذنًا للحسين وأصحابه، وبعد تمام صلاة الظهر في يوم العاشر تقدَّم مجاهدًا بين يديه وهو يقول:

أَقدِم حسينُ هاديـــا مهديًا | اليـوم نــلقـــى جـدَّك النَّبيًّا
ثم أباك ذا الــعـــــلا عليًّا | والحسـن الخيرَ الرَّضـي الوليًّا
وذا الجنـاحين الفتى الكَميًّا | وأسـد الله الشهيـــد الحيًّا

ثم قاتل حتى وقع شهيدًا.

كان غلام الحر "أسلَم التركي" راميًا بارعًا، وكاتبًا للحسين، يجيد العربية وتلاوة القرآن، وقد برز لهم وهو ينشد:

البحر من طعني وضربي يصطلي
والجو من ســـهمي ونبلي يمتلي
إذا حُســـامِي في يميني ينجلي
ينشقُّ قلــب الحـــاسد المبجَّل

فقاتلهم قتال الأبطال وقتل منهم جماعة، فاحتوشوه، وصرعوه، فجاءه الحسين، وهو في الرَّمق الأخير، فبكى عند رأسه، ثم وضع خدَّه على خدِّه، ففتح عينيه وتبسَّم، وانتقل إلى ربه راضيًا مرضيًّا.

28

لم يزل رجال الحسين يتقدمون واحدًا تلو الآخر، حتى فنوا عن آخرهم، ولم يتبقَّ معه إلا أهل بيته من بني هاشم، فجاءت النوبة عليهم، وقد كان للحسين ولدان باسم علي، أحدهما علي بن الحسين "الأكبر"، وهو أكبر أولاده من الذكور، أما الثاني فهو علي بن الحسين "السَّجاد"، وكان مريضًا، وقد سقط عنه الجهاد يوم عاشوراء، أما الأكبر فكان يتنقل في سوح القتال، وقام بجلب الماء للمخيمات ليلة عاشوراء.

أمه "ليلى بنت أبي مرة بن عروة بن مسعود الثقفي"، وأمها بنت أبي سفيان بن حرب، ولذا قال له رجل من أهل الشام:

- إن لك بأمير المؤمنين قرابةً ورحمًا، فإن شئت آمناك، وامضِ حيثما أحببت.

فامتعض منهم وقال بأنفة هاشمية:

- أما والله لقرابةُ رسول الله كانت أولى أن تُرعى من قرابة أبي سفيان.

كان أول هاشمي يتقدم نحو سوح القتال، وعندما أراد النزول، رفع الحسين شيبته نحو السماء، ودعا عليهم بتحسُّر:

"اللهم اشهد على هؤلاء القوم، فقد برز إليهم غلامٌ أشبه الناس خَلْقًا وخُلُقًا ومنْطقًا برسولك محمد (ص)، وكنا إذا اشتقنا إلى وجه رسولك نظرنا

إلى وجهه، اللهم فامنعهم بركات الأرض، وإن منعتهم ففرقهم تفريقًا، ومزقهم تمزيقًا، واجعلهم طرائق قِددًا، ولا ترضِ الولاة عنهم أبدًا".

ثم صاح بعمر بن سعد في غضب:

- يا بن سعد، قطع الله رحمك كما قطعت رحمي، ولا بارك لك في أمرك، وسلَّط عليك من يذبحُك على فراشك.

ثم كر "الأكبر" على أولئك الأوباش، وهو يقول في بسالة وبصيرة:

أنا علي بن الحســـين ابن علي

نحن وبيت الله أولـــــى بالنبـي

تالله لا يحكمُ فينـا ابن الـدَّعي

أضـرب بالسيف أُحامي عن أبي

ضـــرب غلام هـاشمي قرشـــي

كان يراهق العشرين عامًا، بطلًا همامًا، حتى ظنوا أن علي بن أبي طالب قد خرج من قبره وجاء لقتالهم! قتل منهم مائة وعشرين رجلًا، ثم رجع إلى أبيه، وهو يقول بقلبٍ مُنفَطِر:

- يا أبتِ العطش قتلني، وثقل الحديد أجهدني، فهل إلى شربة ماء من سبيل؟

فبكى الحسين ثم قال:

- وا غوثاه! يا بُني من أين آتي بالماء، قاتل قليلًا، فما أسرع ما تلقى جدَّك محمدًا (ص)، فيسقيك بكأسه الأوفى شربة لا تظمأ بعدها أبدًا. عزَّ على أبيك أن تدعوه فلا يجيبك، وتستغيث به فلا يغيثك.

ثم عاد لقتالهم، وكانت له صولات وجولات، حمل عليهم وهو ينشد:

الحربُ قـد بانـت لهـا حقـائق
وظَهرَت من بعدِها مصـــادقُ
والله رب الـعـرش لا نُـفـارق
جُمـــــوعكم أو تُغمد البوارقُ

جعل يقاتلهم حتى أكمل المئتين، فقال الشقي منقذ بن مرَّة العبدي:

- عليَّ آثام العرب، إن مرَّ بي هذا الشاب يفعل مثل ما كان يفعل أن أثكل أباه وأمَّه فيه.

فمر به، فضربه بالسيف على مفرق رأسه ففلقها، فاعتنق الفرس، فحمله إلى معسكر الأعداء، فاحتوشوه وقطعوه بسيوفهم إربًا إربًا، فلما بلغت روحه التراقي نادى بأعلى صوته:

- يا أبتاه، هذا جدي رسول الله قد سقاني بكأسه الأوفى شربة لا أظمأ بعدها أبدًا، وهو يقول لك: العجل! فإنّ لك كأسًا مذخورة.

فصاح الحسين بألم:

- قتل الله قومًا قتلوك! يا بني ما أجرأهم على الله، وعلى انتهاك حُرمة رسول الله.

ثم جاء الحسين مسرعًا وهو يصرخ:

- ولدي علي.. ولدي علي.

دفعهم عنه ورمى بنفسه عليه، ووقف عند رأسه، وهو يقول بلوعة وتحسُّر:

- على الدُّنيا بعدك العفا. أما أنت فقد استرحت من الدنيا وضيمها، وقد صرت إلى روحٍ وريحان، وبقي أبوك، وما أسرع لحوقه بك.

رأت "زينب" أخاها يندبه وبدا كحالة المحتضر، قد وضع خده على خد الأكبر، فخرجت من الخيمة، وجاءت مسرعة نحوه وهي تنادي:

- يا حبيباه، يا بن أخاه.

ثم اكبت عليه وهي تبكي، فقام الحسين وردها إلى النساء، وهو يضم ولده إلى صدره، ثم جاء به إلى الفسطاط الذي كانوا يقاتلون أمامه، ووضعه مع الشهداء، فرأته ابنته سكينة باكيًا حزينًا، فقالت بحرقة:

- ما لي أراك تنعي نفسك.. أين أخي علي؟

فقال لها الحسين والألم يعتصر قلبه:

- قتله اللئام.

فصرخت ونادت:

- وا أخاه، وا مهجة قلباه.

29

تقدَّم "عبد الله بن مسلم بن عقيل" وأمه رقية بنت أمير المؤمنين، وأُمُّها "الصهباء التغلبية"، وكان يبلغ يومها ستة وعشرين عامًا، وأنشأ في حماس:

اليوم ألقى مسلمًا وهو أبي وفتيةً بادوا على دين النبي

ليس كقومٍ عُرفوا بالكذِب لكِن خيارٌ وكِرامُ النَسبِ

فقتل ثلاثة من شجعانهم، فرماه "عمرو بن صبيح" بسهم، فوضع عبد الله يده على جبهته كي يتقيه، فأصاب السّهم كفَّه ونفذ إلى جبهته فسمَّرها به، فلم يستطع تحريكها، فرفع عبد الله بصره نحو السماء وقال:

- اللهم إنهم استقلُّونا واستذلُّونا، اللهم فاقتلهم كما قتلونا، وأذِلَّهم كما استذَلُّونا.

ثم انتحاه بسهم آخر ففلق قلبه، وطعنه آخر برمحه، فسقط قتيلًا، فجاءه "عمرو" ونزع سهمه، وبقي النَّصل في جبهته!

ثم نزل "محمد بن مسلم بن عقيل" يقاتلهم قتالًا شديدًا، فطعنه "لقيط بن إياس الجهني"، فأراده قتيلًا، فصاح الحسين:

- صبرًا على الموت يا أبناء عمومتي، صبرًا يا أهل بيتي، لا رأيتم هوانًا بعد هذا اليوم.

ثم تقدَّم "جعفر بن عقيل"، وكان صهرًا لأمير المؤمنين، وأمه "الحوصاء بنت عمرو"، وتُكنى "أم الثَّغر"، كان عمره ثلاثة وعشرين عامًا، فلما توسطهم أخذ يرتجز:

أنا الغلام الأبطحي الطـالبي
من معشـــرٍ في هاشـــم وغالبِ
ونحن حقًّا ســـــــادة الذوائبِ
هذا حسيـــنٌ أطيـب الأطايبِ

فقاتلهم قتالًا شديدًا، حتى قتل منهم خمسة عشر رجلًا، ثم كمن له بشر بن خوطة، فقتله على حين غرَّة.

فبادر أخوه "عبد الرحمن بن عقيل"، وعمره حين المنازلة خمسة وثلاثون عامًا، كان صهرًا للإمام علي، طويل القامة، ولذا لقبوه "رمحٌ عقيلي"، فحمل عليهم حملة منكرة، وهو يرتجز:

أبي عقيـلٌ فـاعرفوا مكـاني
من هاشـــمٍ وهاشـــمٌ إخواني
كهولُ صـدقٍ سـادةُ الأقرانِ

هذا حسينٌ شـــامخُ البنيانِ

وسـيِّد الشِّـيب مع الشُّـبانِ

قتل منهم سبعة عشر رجلًا، فشدَّ عليه عثمان بن خالد بن أسيرٍ الجهني، فرماه بسهم، وسانده بشر بن سوطٍ الهمداني، والقابضي، حتى أردوه قتيلًا.

يبرز "عبد الله بن عقيل الأكبر"، وكان عمره ثلاثة وثلاثين عامًا، وهو صهر لعمه علي بن أبي طالب، يقاتلهم قتال الأبطال، حتى احتوشه عثمان بن خالد بمساندة رجل آخر من همدان وقتلوه.

ثم تقدَّم "عون بن جعفر الطَّيار"، وأمه "أسماء بنت عميس"، ولد بأرض الحبشة، ثم أحضره أبوه في غزوة خيبر إلى المدينة المنورة، قال عنه رسول الله (ص) بأنه شبيه خلْقه وخُلقه، وقد زوجه عمُّه علي بن أبي طالب بابنته "أم كلثوم"، وكان من أصحاب الحسن والحسين، كان عمره يوم عاشوراء ستة وخمسين عامًا، فقاتلهم قتالًا شديدًا، وقَتَل جمعًا منهم، ثم وقع شهيدًا.

ينازلهم "عون بن عبد الله بن جعفر"، وأمه زينب بنت علي أو "جمانة بنت المسيَّب"، وقد التحق بخاله الحسين بعد مسيره من المدينة المنورة إلى مكة قبيل توجهه إلى كربلاء، وفي يوم عاشوراء تقدَّم للقتال، وهو يرتجز:

إن تنكروني فـأنا ابن جعفرِ

شـهيدُ صـدقٍ في الجنان أزهرِ

يطيرُ فيهـا بجنـاحٍ أخضـــرِ

كفى بهــذا شرفًا فـي معشرِ

فقاتلهم قتالًا شديدًا، فقتل ثلاثة فرسان وثمانية عشر راجلًا، حتى حمل عليه عبد الله بن قطبة الطائي، والنبهاني فسقط قتيلًا مُضرَّجًا بدمه.

ثم تقدم أخوه "محمد بن عبد الله بن جعفر"، وأمَّه "زينب بنت علي"، أو "الخوصاء بنت خصفة بن ثقيف بن ربيعة" وهو ينشد:

أشـــكو إلى الله من العُـدوان

فِعـالَ قومٍ في الرَّدى عميـانِ

قد بدَّلـوا مَعـــــــالمَ القرآنِ

ومحكمُ التَّنزيـــــلِ والتِّبيـــانِ

وأظهـرُوا الكُر مع الطُّغيـانِ

فقاتلهم قتالًا شديدًا، فقتل منهم عشرة رجال، فكمن له عامِرُ بن نهشلٍ التَّميمي فقتله.

يتقدم "عبيد الله بن عبد الله بن جعفر"، وهو ابن "الخوصاء ابنة حفصة"، يقاتلهم قتال الأبطال، حتى قتله بشر بن حوط الهمداني القابضي.

يدخل "القاسم بن محمد بن جعفر" الميدان، وكان صهرًا لعبد الله بن جعفر، جاء برفقة زوجته، والتحق بالإمام الحسين، وقد نزل الميدان، وقاتلهم ببسالة وشدة حتى أجهز على ثمانين منهم، فأثخن بالجراحات، فوقع شهيدًا مضرجًا بدمه.

30

يتقدم "القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب"، وأمه أم ولد تُدعى "رملة"، كان غلامًا وسيمًا كأنه فلقة قمر، رباه عمه منذ وفاة أبيه، عندما كان في الرابعة من عمره، كان الغلام يراهق البلوغ في الثالثة عشرة من عمره يوم عاشوراء، وشقيقاه أبوبكر وعبد الله كانا حاضرَين معه ينتظران دورهما في القتال، هو من قال بأن الموت في نصرة عمه "أحلى من العسل" في ليلة عاشوراء.

كان يستأذن الحسين في يوم العاشر، فلم يأذن له في بادئ الأمر، لكنه عاوده بإيعاز من والدته، فأذن له وعانقه طويلًا، وأخذا يبكيان حتى غُشي عليهما، ثم خرج وعليه قميص وإزار، ونعلان، فقاتلهم قتال الأبطال، حتى قَتل على صغر سنه خمسة وثلاثين رجلًا، فقال "عمرو بن سعد بن نفيل الأزدي" لحميد بن مسلم:

- والله لأشدنَّ عليه.

فرد حميد باستغراب:

- سبحان الله! وما تُريد إلى ذلك؟! يكيفك القوم الذين احتوشوه.

فرد بضمير ميت:

- والله لأشدنَّ عليه.

وبينما القاسم يقاتل انقطع شسع نعله اليسرى، فنزل في حومة الميدان ليصلحه، فكمن له "عمرو الأزدي"، فضربه بالسيف على قمة رأسه ففلقها، فنادى القاسم:

- يا عمَّاه؟

فجاءه الحسين كالليث الغضبان، وضرب قاتله، فاتقاه بالساعد، فأطنَّها من المِرفق، فصاح صيحة عظيمة سمعها المعسكر، ثم حملت خيل ابن سعد ليستنقذوه منه، فوقع على الأرض، فاستقبلته الخيل بصدرها، وجالت عليه ووطئته بحوافرها، حتى مات من ساعته.

وما انجلت الغبرة إلا والحسين واقف عند رأس الغلام، وهو يفحص برجليه، فقال الحسين بحسرة:

- بُعدًا لقومٍ قتلوك، ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدُّك، عز والله على عمِّك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يُجيبك فلا ينفعك! صوتٌ والله كثُر واتره، وقلَّ ناصره.

ثم حمله الحسين، وكانت رجلا الغلام تخطان الأرض؛ فقد انحنى ظهره لهول المصيبة، جاء به إلى الخيمة، ووضع جثته إلى جانب ابنه عليٍّ الأكبر وبقية بني هاشم، ثم رفع طرفه نحو السماء ودعا عليهم:

- "الله أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تُغادر منهم أحدًا، ولا تغفر لهم أبدًا".

يتقدم شقيق القاسم "أبوبكر بن الحسن"، يستأذن عمَّه الحسين، فيأذن له، فيقاتلهم قتال الأبطال، يكمن له عبد الله بن عقبة الغنوي فيقتله.

ثم يبرز "الحسن بن الحسن المثنى" وأمه "خولة بنت منظور"، التي يصل نسبها إلى "نزار بن معد بن عدنان"، وكان شبيهًا برسول الله (ص)، شجاعًا مِقدامًا، يشدَّ عليهم، فيقتل من جيش ابن سعد سبعة عشر رجلًا، تصيبه ثمانية عشر جراحة، فيسقط عن ظهر حصانه، كان في الرمق الأخير، وكادوا أن يحتزُّوا رأسه، إلا أنه وقع في الأسر، فجاء أحد أخواله، ويُدعى "أسماء بن خارجة"، فتوسَّط له وحمله إلى الخيام، ليعالجوه، فلما علم عمر بن سعد، قال لهم:

- دعوا لأبي حسَّان ابن أخته.

ثم جاء الدور على أبناء علي بن أبي طالب، وكان أوَّلهم "عبد الله بن علي" شقيق العباس، وأمه "أم البنين": فاطمة بنت حزام الكلابية، شابًّا في الخامسة والعشرين من عمره، قال له العبَّاس:

– تقدَّم بين يدي حتى أراك وأحتسبك، فإنَّه لا ولد لك.

فتقدم وقاتلهم ببسالة، وهو ينشد:

أنا ابنُ ذِي النَّجدةِ والإفضـــالِ

ذاك عليٌّ الخيرِ ذُو الفعـالِ

سـيفُ رسـول اللهِ ذُو النَّكال

فِي كلِّ يومٍ ظـاهرِ الأهوالِ

أبلى بلاءً حسنًا، فرماه "خولي بن يزيد الأصبحي" بسهم، ثم شدَّ عليه "هانئ بن ثُبيتٍ الحضرمي" فقتله.

ثم برز شقيقه "عثمان بن علي"، وكان يبلغ إحدى وعشرين سنة، وهو يرتجز:

إنِّي أنا عثمانُ ذو المفاخرِ

شيخي عليٌّ ذو الفعال الظاهرِ

وابنُ عمِّ للنبي الظاهرِ

أبو حُسينٍ خيرةُ الأخائرِ

وسيِّدُ الكِبارِ والأصاغرِ

بعد الرَّسولِ والوصيِّ الناصرِ

فرماه خولي بن يزيد الأصبحي بسهم فأوهنه، ثم جاء رجل من بني أبان بن دارمٍ، فقتله واحتز رأسه، وجاء به إلى عمر بن سعد، فقال في تفاخر:

- أثِبْنِي.

فنظر إليه باستعلاء:

- عليك بأميرك عبيد الله بن زياد فسله أن يثيبك.

ثم تقدَّم شقيقه "جعفر بن علي"، وكان عمره تسعة عشر عامًا، فدخل الميدان وهو يرتجز:

إني أنا جـعـفـر ذو المـعـالي

نجـلُ علِـيِّ الخيرِ ذو النَّوالِ

أحمي حُســـينًا بالقنا العسّـــالِ

وبالحُســـامِ الواضــحِ الصــقَّالِ

فرماه "خولي بن يزيد الأصبحي" بسهم فأوهنه، ثم تقدَّم نحو "هانئ بن ثبيت الحضرمي" فقتله.

ثم برز أخوه غير الشقيق "أبوبكر بن علي"، واسمه "عبد الله" أو "محمد الأصغر"، وأمه "ليلى بنت مسعود التميمية"، وكان يرتجز:

شــــيخي عليٌّ ذُو الفخـار الأطولِ

من هـاشم الصِّدق الكريـم المفضَلِ

نفـديـه نفســـي من أخٍ مُبجَّـلِ

يا رب فامنحنـــــــي ثواب المُجزَلِ

فرماه "عبد الله بن عقبة" بسهم فأوهنه، فحمل عليه "زحرُ بن قيس النخعي" فقتله.

ثم برز أخوه "محمد بن علي"، وأمه "أسماء بنت عميس الخثعميَّة"، أو "أم ولد"، ويُلقَّب "محمدًا الأصغر"، وكان يبلغ يوم العاشر اثنين وعشرين عامًا، فقتله رجل من بني أبان بن دارم.

31

جاءت النَّوبة على قمر بني هاشم "العباس بن علي" أخي الحسين، وأمه فاطمة بنت حزام "أم البنين"، وكنيته "أبو الفضل"، وزوجته "لبابة بنت عبيد الله بن العباس"، له ولد يُدعى "عبيد الله"، كان عمر العباس يوم عاشوراء أربعًا وثلاثين سنة، طويل القامة، إذا ركِب المُطهَّم رجلاه تَخُطَّان الأرض، عريض المنكبين، صبيح الوجه، جميل المحيَّا، وسيمًا، كان صاحب اللواء الأعظم في عاشوراء، شجاعًا مغوارًا، وقد لقب "بالسقاء" و"ساقي عطاشى كربلاء"، من يوم اختراقه الصفوف، وجلب الماء من مشرعة نهر الفرات في يوم السابع من محرم، وقد كان عليها يومذاك "عمرو بن الحجاج الزبيدي"، ومعه حشد يُقدر بأربعة آلاف مقاتل، فتقدَّم "العباس" واقتحمها ببسالة دون تردد أو خوف، وليس معه سوى ثلاثين فارسًا، وعشرين راجلًا، يتقدَّمهم "نافع بن هلال"، نجحوا في مهمتهم، وملأوا قربهم وعادوا بها إلى المخيمات.

كان العباس متفانيًا في الإسلام، عاشقًا لأخيه الحسين، مواسيًا له بنفسه وبإخوته الأشقاء الثلاثة من أم البنين العامرية، عبد الله وعثمان وجعفر، الذين دعاهم أن يتقدموا ويحاموا عن سيدهم؛ حتى نالوا الشهادة بين يديه. لقد استقوا الشجاعة من أبيهم فاتح باب خيبر، وأمهم التي ليس

في العرب أشجع من آبائها وإخوانها، وقد خطبها عقيل بن أبي طالب لأخيه أمير المؤمنين؛ لتلد له غلامًا فارسًا، فكانت حضنًا للفرسان الأربعة.
كان العباس نافذ البصيرة، صلب الإيمان، وقد تجلى ذلك في موقفه البطولي المخلص، فعندما جاءه "شمر بن ذي الجوشن الضبابي" بكتاب أمان من والي الكوفة والبصرة "عبيد الله بن زياد"، امتعض منه، وكره لقاءه، ولم يرد عليه، إلا أن الحسين دعاه لإجابته، فقال:
- أجيبوه وإن كان فاسقًا؛ فإنه بعض أخوالكم.

فتجهَّم وجهه، وقال له في عبوس:

- لعنك الله ولعن أمانك.. أتومننا وابن رسول الله لا أمان له؟!
كان العباس كفيل أخته "زينب بنت علي" عند قدومها بصحبة شقيقها الحسين إلى كربلاء، وعندما جعجع بهم "الحر بن يزيد الرياحي"، واضطربت المحامل، تقدم العباس نحو هودجها مطمئنًا إياها.
كان العباس بطلًا لا يضاهيه أحد في الميدان إلا الحسين بن علي، وفي يوم العاشر من المحرم ساند صحابة الحسين عندما حاصرهم الأعداء في الحملة الأولى، واستنقذهم من القتل المحقق.
وعندما اشتد العطش بمعسكر الحسين، استأذنه لجلب الماء لهم، فأذن له على مضض، بأنْ يمضي ويجلب لهم قليلًا من الماء ليبللوا به ريقهم،

فاعترضه الأعداء، فخاض في أوساطهم، وخرج من أعراضهم، وقتل منهم ثمانين فارسًا، حتى وصل المسناة، وكان عليها أربعة آلاف فارس، فكشفهم عن المشرعة، وأحس ببرد الماء، فأخذ غرفة من الماء، فرفع كفه وقربها من فيه، إلا أنه أبى إلا أن يواسي أخاه وذويه، فنفض الماء من يده وهو يقول:

- والله لا أذوق الماء، والحسين وأطفاله عطاشى.

ثم أنشد:

يا نفسُ من بعد الحســـين هوني

وبعـده لا كـنـت أو تـكـوني

هذا الحسيـــنُ واردُ المنـــــونِ

وتشربيــــــــــن باردَ المعيـــنِ

تالله ما هذا فعـــال دينــــــي

ثم ملأ القربة، وحملها على كتفه وصعد جواده، وأراد أن يوصلها إلى نساء وذراري الرسول، فتكاثروا عليه من كل جانب، فجعل يرتجز:

لا أرهبُ الموت إذا الموت رقـــى

حتى أوارى في المصـــــاليت لقا

نفسي لنفس المصطفى الطُّهر وقا

إنـــــي أنا العبّاس أغـــدو بالسقا

ولا أخـاف الشـــرَّ يوم المُلتقى

ففرقهم تفريقًا، فكمن له "زيدُ بن ورقاء الجهني" من وراء نخلةٍ، وعاونه "حكيم بن الطفيل السُّنبسي"، فضربه على يمينه فبراها.

فأخذ السيف بشماله، وضم اللواء إلى صدره، وحمل القربة على كتفه الأيسر، ونزل فيهم كالليث الغضبان وهو يقول:

والله إن قطعتمُ يميـــــــــني إنّي أُحـامي أبـدًا عن ديني

وعن إمـامٍ صـــادق اليقينِ نجل النبي الطاهر الأميـــنِ

فقاتلهم حتى ضعُف من أثر الجراحات، فكمن له "حكيم بن الطفيل الطائي" من وراء نخلة، فضربه على شماله فقطعها من الزند، فأنشد في بسالة ليس لها مثيل:

يا نفسُ لا تخشـــي من الكُفَّار

وأبشـــــري برحمة الجبَّـــــار

مع النبِيّ السيِّد المُختـــــــارِ

قـد قطعوا ببغيهم يســـــارِي

فـأصْـــلِهم يا ربُّ حَرَّ النَّـارِ

يقع السيَّف من يده، فيأخذ القربة بأسنانه، يسرع بالماء إلى المخيم، فلما وجد ابن سعد حرص العباس على إيصال الماء لهم، دعاهم لرشقها بالسهام، وقال لهم في تعنُّت:

- ويلكمُ، ارشقوا القربة بالنبل، فو الله إن شرب الحسين من هذا الماء أفناكم عن آخركم!

فأتته السهام كرشق المطر، فأريق ماؤها، وأتاه سهم فنشب في صدره، ثم جاءه سهم مثلث أصاب عينه اليمنى فخسفها، وجمدت الدماء على عينه الأخرى، فلم يبصر الطريق، فجاءه رجل من الأعداء، فضربه بعمود من حديد على أمِّ رأسه ففلق هامته، فسقط من على ظهر جواده، فاحتوشوه من كل جانب، هذا يضربه بسيفه، وهذا يطعنه برمحه، فنادى بضعيف صوته:

- عليك منِّي السلام يا أبا عبد الله.

فجاءه الحسين مسرعًا كالصقر المنقض على فريسته، فجندل أبطالهم، وفرقهم عنه، وجلس بقربه، ثم ووضع رأسه في حجره، وجعل يمسح الدَّم والتراب عن وجهه، وهو يبكي، ويقول بحرقة:

- الآن انكسر ظهري، الآن قلَّت حيلتي، الآن شمت بي عدُوِّي.

ثم عاد يضربهم بسيفه وهو يقول:

- إلى أين تفرون وقد قتلتم عضيدي؟!

حمل عليهم حملة منكرة، ثم عاد ووضع رأس أخيه في حجره حتى فاضت روحه الطاهرة.

لقد كسر بشهادته ظهر الحسين، وقد طلب منه أن يبقيه هناك على المسناة، وأن لا يرجعه للخيام؛ لخجله من لقاء سكينة، فقد واعدها بجلب الماء، فأبى أن يعود لها خالي الوفاض، لقد قطعوه إربا إربا؛ ولم يكن هناك من سبيل لحمله، فقد هده مقتل أخيه، ورحل من يعينه على حمله.

فلما عاد الحسين إلى الخيام كان منحني الظهر، يكفكف دموعه بكمه، كي لا تراه النساء والأطفال.

ثم صرخ بتفجُّع:

- ألا من معينٍ يُعيننا؟

فأقبلت إليه سكينة وسألت عن عمها، فأخبرها بمقتله، فصرخت ونادت:

- وا عمَّاه، وا عبَّاساه.

فسمعتها عقيلة الطالبيين "زينب بنت علي"، فصاحت بحسرة:

- وا أخاه، وا عبَّاساه، وا ضيعتاه.

فبكى الحسين مع النساء، ثم استرجع.

32

لما بقي الحسين وحيدًا فريدًا نادى بأعلى صوته:

- هل من ذابٍّ عن حرم رسول الله؟ هل من مُوحِّد؟ هل من مُغيثٍ؟ هل من معينٍ؟

فضجت النساء بالبكاء، فسمع السَّجاد استغاثته، فأراد أن يأخذ سيفه، فمنعه المرض من ذلك، فلمّا رأته "أم كلثوم" يريد الخروج من الخيمة صاحت عليه:

- ارجع يا بن أخي.

فقال لها السَّجاد بحرقة:

– دعيني أقاتل بين يدي ابن رسول الله.

فسمعه الحسين فتحادرت دموعه على خده، واقترب من أخته زينب:

- يا أخيَّة احفظيه؛ كي لا تخلو الأرض من حجة.

أخذ ينظر لبوغاء كربلاء، فيراها مفروشة بجثث الأنصار، فنعاهم بحسرة:

- يا حبيب بن مظاهر، ويا زهير بن القين، ويا مسلم بن عوسجة، يا أبطال الصفا وفرسان الهيجاء. ما لي أُناديكم فلا تسمعون، وأدعوكم فلا تجيبون.. قُوموا من نومتكم يا كرام، وادفعوا عن آل الرسول الطغاة اللئام.

ثم تقدَّم عند باب الفسطاط، ودعا بابنه "عبد الله الرَّضيع" وأمُّه "الرباب بنت امرئ القيس الكلبي"؛ حتى يودِّعه، فوضعه في حجره، وأخذ يُقبِّله ويشُمُّه وهو يخاطبه:

- ويل لهؤلاء القوم إذا كان جدُّك المصطفى خصمهم.

ثم صعد على فرسه وأتى نحو القوم، وكان الطفل يبكي عطشًا، فوضعه على يده، وطلب له قليلًا من الماء، وهو يقول بحسرة:

- يا قوم إن لم ترحموني، فارحموا هذا الطِّفل.

فرماه حرملة بن كاهل الأسدي بسهم وقع في نحره، فنزع الحسين السهم من حلقه، وجعل يلطخه بدمه، وهو يقول:

- اللهم احكم بيننا وبين قومٍ دعونا لينصرونا، فقتلونا.

ثم وضع الحسين كفَّه تحت نحره ولُبَّته، حتى إذا امتلأت بدمه رمى به نحو السماء، وهو يقول:

- "هوَّن عليَّ ما نزل بي أنَّه بعين الله. اللهم لا يكن أهون عليك من فصيل ناقة صالح. اللهم إن كنت حبست عنّا النصر فاجعله لما هو خير منه، وانتقم لنا من الظالمين، واجعل ما حلَّ بنا في العاجل ذخيرةً لنا في الآجل".

فلم يسقط من ذلك الدم قطرة على الأرض!

ثم نزل الحسين عن فرسه، وحفر خلف الخيام حفرة للطفل بجفن سيفه، ورمَّله بدمه، ودفنه.

أخذت النساء يبكين لهول ما رأوا، فأمر عياله بالسُّكوت وودعهم ثانية، وكانت عليه جُبَّة خز دكناء، وعمامة مورَّدة، أرخى الذؤابتين، والتحف ببردة جده المصطفى (ص)، ولبس درعه، وتقلَّد بسيفه، ثم قال:

- ايتوني بثوبٍ خَلِق لا يرغب فيه أحد، أجعله تحت ثيابي لئلا أُجرَّد منه.

فأتوه بسراويل صغيرة "تبَّان"، فقال لهم:

- لا، ذاك لباسُ منَ ضُرِبت عليه الذِّلة.

ثم أخذ ثوبًا خلِقًا فخرَّقه، وجعله تحت ثيابه، واستدعى بسراويلٍ من حِبرة يمنية يلمع فيها البصر، ففزرها ولبِسها.

يذهب إلى خليفته "زين العابدين"، فيوصيه بالاسم الأعظم، ويسلمه مواريث الأنبياء، ثم يذكِّره بالعلوم والمصاحف والسلاح التي دفعها إلى "أم سلمة"؛ ليتسلمهم منها.

يدعو ابنته فاطمة، ويدفع إليها كتابًا ملفوفًا ووصيَّة ظاهرة، وكان السَّجاد مبطونًا يومها، فدفعته إلى أخيها، فاقترب منه فضمَّه إلى قلبه، وعلَّمه دعاءً يدعو به عند حلول النازلة.

يضم حفيده "محمد الباقر"، وكان يومها طفلًا لا يتجاوز عمره أربع سنوات.

يقف بباب خيمة النِّساء، ينادى بصوت يقطع القلوب:

- يا زينب، يا أم كلثوم، يا فاطمة، يا سكينة، عليكنَّ منِّي السَّلام.

فقالت له سكينة بتفجُّع:

- يا أبه، استسلمت للموت؟

فرد بتسليم لقضاء الله وقدره:

- كيف لا يستسلم للموت من لا ناصر له ولا معين؟

فبكت وقالت:

- رُدَّنا إلى حرم جدِّنا رسول الله (ص).

فتحادرت الدموع من مقلتيه، وهو يقول:

- هيهات! لو ترك القطا لغفا ونام.

فواصلت بكاءها، فدنا منها ومسح دموعها بكمه، وضمَّها إلى صدره وأخذ ينشد:

سيطولُ بعدي يا سُكينةُ فاعلمي منكِ البكاءُ إذا الحِمام دهانـــي
لا تُحرقي قلبي بِدمعكِ حســرةً مـا دام منّي الرُّوح في جُثمـانِي
وإذا قُتلـتُ فـأنـت أولى بالَّـذي تأتيـــــنه يا خيـــرة النســوانِ

نزل لحظتها إلى الأرض أربعة آلاف من الملائكة لنصرة الحسين، فلم يؤذن لهم.

ثم تقدَّم الحسين إلى الميدان، وكان جيش عمر بن سعد كالجراد المنتشر، قد اكتملوا ثلاثين ألفًا، فدعاهم إلى المبارزة رجُلًا لرجل، فلم يزل يقتل كل من برز إليه، حتى قتل منهم مقتلة عظيمة، وهو يقول:

القتلُ أَولى مِن رُكوبِ العارِ والعارُ أَولى من دُخولِ النّارِ

كانوا يفرون من بين يديه، يقول حميد بن مسلم:

- والله ما رأيت مكثورًا قط قد قُتل وُلدُه، وأهلُ بيتهِ وأصحابه، أربطَ جأشًا، ولا أمضى جَنانًا مِنهُ، إن كانت الرَّجالة لتشدُّ عليه، فيشدُّ عليها بسيفه، فتنكشِف عن يمينه وشِماله انكشاف المِعزى إذا شدَّ فيها الذِّئب.

فقتل منهم مقتلة عظيمة لم يقتلها أحد قبله، فقال عمر بن سعد مغضبًا:

- الويل لكُم، أتدرون من تُبارزون؟ هذا ابنُ الأنْزع البطين. هذا ابن قتَّال العرب. فاحملوا عليه من كل جانب.

يستدعي "شمر بن ذي الجوشن" الفرسان فيصيرون في ظهور الرَّجالة، يأمر الرُّماة أن يرموه، فجاءته السِّهام تترى كرشق المطر، وهو يتلقاها بصدره ونحره، وهو يقول:

- يا أُمَّة السوء! بئس ما خلَّفتم محمدًا في أمَّته وعترته، أما إنَّكم لن تقتُلوا بعدي عبدًا من عبادِ الله، فتهابون قتله.. وأيم الله إني لأرجو أن يُكرمني الله بهوانكم، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون.

فصاح "الحصين بن نمير السَّكوني":

- يا بن فاطمة، وبماذا ينتقم لك منا؟

فقال بثقة:

- يُلقي بأسكم بينكم، ويسفك دماءكم، ثم يصبُّ عليكم العذاب صبًّا.

فجعل الحسين يطلب الماء، فيقول له الشمر في خسة ووقاحة:

- لا ترده حتى ترد النَّار.

ثم يقول له أجلاف القوم:

- يا حسين، ألا ترى الفرات، كأنه بطون الحيَّات، فلا تشرب منه قطرة حتى تموت عطشًا.

ينظر إلى السماء، ويدعو عليه:

- اللهم أَمِتْهُ عطشًا.

كان ذلك المعتوه يطلب الماء فيُأتى له، فيشرب حتى يخرج من فيه، وما زال كذلك حتى مات عطشًا.

ثم أحجم عنه القوم، فقام يتمشى على المسناة نحو الفرات، فكشفهم عن الماء وأقحم فرسه، فلما ولغ الفرس ليشرب قال له برفق:

- أنت عطشان وأنا عطشان، فلا أشرب حتى تشرب.

فرفع الفرس رأسه كأنه فهم الكلام، وكأنه قال:

- اشرب فأنا أشرب.

فلما مد يده، ليشرب وأراد وضعها في فيه رماه "الحُصين بن نمير بسهمٍ"، فدخل في فمه، فحال بينه وبين شُرب الماء!

ثم سمع أحدهم يقول:

- يا حسين، أَتلتذُ بالماء وقد هُتكت حريمك؟

يأتي الشمر في جماعة، يحولون بينه وبين رحله وعياله، فيصيح بهم الحسين:

- ويحكم يا شيعة آل أبي سفيان، إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا أحرارًا في دنياكم، وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم عُرُبًا كما تزعمون!

يناديه شمر بدناءة: ما تقول يا بن فاطمة؟

فيرد الحسين بحميَّة دفاعًا عن شرفه:

- أنا الذي أقاتلكم وتقاتلونني، والنساء ليس عليهن جناح، فامنعوا عُتاتكم وجُهَّالكم عن التعرض لحرمي ما دُمت حيًّا.

ثم صعد على ظهر فرسه، لكنه قد ضعف عن القتال، فرماه "أبو الحُتوف الجُعفي" بسهم فوقع في جبهته، فأخذ الثوب ليمسح الدَّماء عن جبهته، فأتاه سهمُ محدد مسموم ذي ثلاث شُعب، فوقع في لُبَّة قلبه، فقال الحسين بتسليم:

- بسم الله وبالله وعلى ملَّة رسول الله.

ثم رفع رأسه إلى السماء، وخاطب ربَّه في خشوع:

- إلهي إنك تعلم أنهم يقتلون رجُلًا ليس على وجه الأرض ابن نبي غيرُه.

يأخذ السهم، يخرجه من "قفاه"، فينبعث الدَّم كالميزاب، فيضع يده على الجُرح، فلمَّا امتلأت رمى بها نحو السماء، فما رجع منها قطرة، ثم وضع يده على الجُرح ثانيًا، فلمَّا امتلأت لطَّخ بها رأسهُ ولحيته، وهو يقول:

- هكذا والله أكون حتى ألقى جدي محمدًا وأنا مخضوبٌ بدمي، وأقول: يا رسول الله، قتلني فلانٌ وفلان.

ثم رماهُ "سنانُ بن أنس النخعي" بسهم فوقع في نحره، وطعنه "صالح بن وهب اليزني" طعنة في خاصرته، فسقط عن جواده إلى الأرض، واستوى قاعدًا، نزع السَّهم من نحره، وأقرن كفيه، فكلَّما امتلأتا من دمه خضَّب به رأسه ولحيته، وهو يقول:

- هكذا حتى ألقى ربي بدمي، مغصوبًا على حقِّي.

فخرجت أخته زينب من خدرها، وهي تقول في حسرة:

- ليت السماء انطبقت على الأرض، وليت الجبال تدكدكت على السَّهل.

ثم التفتت إلى عمر بن سعد وهي تلومه بشدة:

- ويحك يا عمر، أُيقتل أبوعبد الله وأنت تنظُر إليه.

فلم يجبها بشيء، كانت دموعه تسيل على خديه ولحيته، ثم أشاح بوجهه عنها.

وفي الأثناء خرج "عبد الله بن الحسن" من الخيام، وهو رابع أبناء الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان يبلغ آنذاك أحد عشر عامًا، فأرادت "زينب" منعه، فما استطاعت، فصرخ عليها الحسين:

- احبسيه يا أختي.

فردَّ الغلام في بصيرة:

- واللهِ لا أُفارقُ عَمِّي.

وجد عمَّه وقد احتوشه الأعداء، فأقبل شمر بن ذي الجوشن في رجَّاله نحو الحسين وأرادوا قتله، فأخذ يشدُّ عليهم فينكشفون عنه، فرفع "كعب بن بحر" سيفه ليضربه، فحال الغلام بينه وبين عمِّه، وقال له مستنكرًا غاضبًا:

- ويلك يا بن الخبيثة. أتقتل عمِّي؟

فضربه بالسيف، فاتقاها الغلام بيده، فأطنَّها إلا الجلدة، فإذا بها مُعلَّقة، فنادى الغلام:

- يا أماه.

فضمَّه الحسين إلى صدره، وقال له في حنان:

- يا بن أخي. اصبر على ما نزل بِك، واحتسب في ذلك الخير، فإنَّ الله يُلحقك بآبائك الصالحين.

فرماه حرملة بن كاهل بسهم، فذبحه وهو في حجره.

فمكث الحسين طويلًا من النهار، ولو شاء الناس أن يقتلوه لفعلوا، ولكن كان يتقي بعضهم ببعض.

فصاح شمر بأصحابه:

- ماذا تنتظرون بالرَّجل؟ هيا احملوا عليه.

فحملوا عليه من كل جانب، ضربه "زرعة بن شريك" على كتفه اليُسرى، فدافع الحسين عن نفسه بصلابة، فضربه ضربة قوية فصرعه، ثم جاءه رجل من كندة يقال له "مالك بن النّسر" فضرب الحسين بالسيف على رأسه، وكان عليه برنس، فقطع البرنس، وجرح رأسه، فامتلأ البرنس دمًا، فدعا عليه:

- لا أكلت ولا شربت بها، وحشرك الله مع الظالمين.

ثم جاء آخر وضربه على عاتقه بالسيف، وكبا به على وجهه، ثم طعنه سنان بن أنس في ترقوته، فانتزع الرَّمح، وطعنه في بواني صدره.

يقول هلال بن نافع:

كنت واقفًا مع أصحاب عمر بن سعد، إذ صرخ صارخ:

- أبشر أيها الأمير، فهذا شمر قد قتل الحسين!

فخرجت بين الصَّفين، فوقفت عليه، فإنه ليجود بنفسه، فو الله ما رأيت قتيلًا مضمَّخًا بدمه أحسن منه، ولا أنور وجهًا، ولقد شغلني نور وجهه، عن الفكرة في قتله.

فقال عمر بن سعد لرجل عن يمينه:

- انزل ويحك إلى الحسين فأَرِحه.

فبدر إليه "خولي بن يزيد الأصبحي" ليحتزَّ رأسه؛ فارتعد، فقال له شمرٌ:

- فتَّ الله في عضدك، ما لك ترتعد؟

ثم تقدَّم الشمر فرفس الحسين، وقال له في حماقة وغرور:

- يا بن أبي تُراب، ألست تزعم أنَّ أباك على حوض النبي يسقي من أحبَّه؟ فاصبر حتى تأخذ الماء من يده.

ثم التفت شمر إلى سنان، وقال له بقلب ميت:

- هيا احتز رأسه من قفاه!

فردّ سنان وجسمه ينتفض من الخوف:

- والله لا أفعل، فيكون جدَّه محمد خصمي!

فتقدم الأبرص الأبقع، فجلس على صدره، وقبض على لحيته، فقال له الحسين:

- اكشف لي عن وجهك؟

فلما رآه تبسَّم وقال بتسليم:

- أنت الكلب الأبقع الذي رأيتُك في منامي. والذي أخبرني به جدي.

فاغتاظ الشمر، وقال بغضب:

- أوتشبهني بالكلاب يا بن فاطمة؟

فقال له الحسين في محاولة أخيرة لإنعاش ضميره الميت، وليكون حجة عليه:

- أتقتلني، أو لا تعلمُ من أنا.

فقال الشمر دون اكتراث:

- أعرفك حقَّ المعرفة: أمك فاطمة الزهراء، وأبوك علي، وجدك محمد.. وأقتُلك ولا أُبالي، ثم قلبه على قفاه، وضربه اثني عشر ضربة حتى حز رأسه الشريف، ورفعه على القنا، ثم دفعه إلى "خولي بن يزيد الأصبحي".

ارتفعت في السماء غبرةٌ شديدة سوداء مظلمة، فيها ريحٌ حمراء لا يُرى فيها عين ولا أثرٌ، حتى ظنَّ القومُ أن العذاب قد جاءهم، فلبثوا كذلك ساعة، ثم انجلت.

فبكت عليه السماوات السبع والأرضون السبع، وما فيهن من الإنس والجن والطير والوحش، وأمطرت السماء دمًا، فلم يُرفع حجر ولا مدر إلا وُجد تحته دمٌ عبيطٌ.

وتحوَّل التراب في القارورة التي أعطاها الرسول (ص) إلى أم سلمة إلى الحمرة، فأعلمت الناس بقتله.

كان بجسده الشريف ما لا يقل عن ثلاث وثلاثين طعنة، وأربع وثلاثين ضربة غير أثر السهام.

33

كان سويد بن عمرو بن أبي المطاع الخثعمي شريفًا كثير الصلاة، أخذ يقاتلهم قتال الأسد الصبور، وهو ينشد:

أنا ابن جُعْفِيٍّ وأبي مُطـاع
وفي يمـيـني مُـرهـفٌ قَـطَّـاعُ
وأسمرُ سنـــــــــانُهُ لَمَّـــاعُ
يُرى له من ضـــوئِه شُـــعاع
قـد طـاب لي في يومي القِراعُ
دون حُســـــينٍ ولـــه الدِّفاعُ

أبلى بلاءً حسنًا، أثخن بالجراحات النازفة، وكان آخر من بقي مع الحسين، حتى سقط على الأرض لا يستطيع الحَراك، فسمعهم يقولون قُتل الحسين، فتحامل على نفسه، وأخرج سكينًا كانت في خفه، فقد استطاعوا تجريده من سيفه، ثم قام يقاتلهم بكل ما أوتي من قوة حتى أصاب بعضهم، لكن "عُروة بن بطَّار التَّغْلُبي"، و"زيد بن رُقاد الجنبي"، أجهزوا عليه وقتلوه.

ثم أقبل فرس الحسين نحو جسده الشريف، فلطَّخ عرفه وناصيته بدمه الطاهر، وراح يركض نحو الخيام، وهو يصهل صهيلًا عاليًا، ويضرب برأسه الأرض محمحمًا باكيًا، وهو يقول:

- الظليمة الظليمة من أمة قتلت ابن بنت نبيها.

فلما سمع بنات الرسالة صوته، خرجن من خدرهن، فرأوا الجواد خاليًا من الحسين، صرخن وبكين، ثم بادرن إلى مصرعه، وهنَّ يندبنه تتقدمهن السيدة زينب وأم كلثوم، التي رفعت صوتها:

- وا محمداه.. وا علياه.. وا حسناه.. هذا حسينٌ بالعراء، صريع بكربلاء، محزوز الرأس من القفا، مسلوب العمامة والرِّداء.

ثم غُشي على أم كلثوم، فأفقْنها النسوة، ووقفت "زينب بنت علي" على جسده الطاهر، رفعت يدها لبارئها، ودموعها تسيل على خدها، وهي تقول في تسليم لرب العالمين قلَّ نظيره:

- اللهم تقبَّل منا هذا القربان.

ثم دعتهم بالعودة إلى الخيام، والحفاظ على سترهن، والإكثار من الاستعاذة والترجيع.

لم يكتفِ أولئك الأوباش بقتل سبط الرسول، فتجرَّدوا من الإنسانية، وبادروا إلى سلب ما عليه من ثياب، في حقد دفين وتشفٍّ نزق، وقساوة

غير مبررة، فأخذ كعب بن بحر (سراويله)، وسرق إسحاق بن حيوة الحضرمي (قميصه)، واستولى جعونة بن حويَّة الحضرمي على (ثوبه)، وسلب قيس بن الأشعث (قطيفته)، وكانت من خز، وسرق الأسود بن خالدٍ الأودي من بني أودٍ (نعْليه)، وأخذ جابر بن يزيد، أو أخنس بن مرثدٍ (عمامته)، وسرق مالك بن بشير الكندي (بُرنسه)، واستولى الرُّحيل بن خيثمة الجُعفي، وهانئ بن ثبيت الحضرمي، وجريرُ بن مسعود الحضرمي على (قوسه والحُلل)، ونهب رجلٌ من بني نهشل بن دارم (سيفه)، واستولى عمر بن سعد على (درعه البتراء)، ثم تقدم بجدل بن سُليم الكلبي فمثَّل بالجسد الطاهر، وقطع إصبعه ليستولي على (خاتمه)!

وإمعانًا بالتنكيل والتمثيل بالجسد الشريف، لإذلال كل من يرفع صوته في وجه الظلم نادى "عمر بن سعد" بأمر من "عبيد الله بن زياد" في تشفٍّ وانتقامٍ وطمعٍ في مُلك الرَّي:

- من ينتدب للحسين ويوطئه فرسه؟!

فجاء عشرة من الفرسان بخيولهم الأعوجية، ورضوا صدره وظهره، وهم "صالح بن وهب اليزني"، الذي طعن الحسين في خاصرته، وتسبب في سقوطه من ظهر الجواد ومقتله، و"إسحاق بن حيوة الحضرمي" الذي استولى على قميصه، بعد شهادته و"الأخنس بن مرثد الحضرمي" سارق عمامته، و"هانئ بن ثبيت الحضرمي" سارق قوسه والحل، و"حكيم بن

طُفيل السبيعي"، و"عمرو بن صبيح الصيداوي"، و"رجاء بن منقذٍ العبدي"، و"سالم بن خيثمة الجُعفي"، و"واحظ بن غانم"، أو "أدلم بن ناعم"، و"أُسيد بن مالك"، الذي كان ينشد:

نحن رضضنا الصَّدر بعد الظَّهر بكلِّ يَعْبــوبٍ شـــديد الأسرِ

كان العشرة جميعهم أولاد بغايا، وقد ابتلاهم الله بعد قيامهم بذلك الفعل الشنيع، فمنهم من صار مُقْعَدًا، ومنهم من أصابه الجذام، ومنهم من أصبح معتوهًا تائهًا.

كان النسوة والسجاد وحفيده الباقر يسمعون تكسر أضلاع الحسين كما تتكسر القوارير، ولولا لطف الله لشهقوا وماتوا.

ثم مال أولئك الغوغاء النَّهابون السَّفلة على خيام الحسين يتقدَّمهم شمر بن ذي الجوشن، وسرقوا (الورس والحلل والمتاع والأموال والإبل)، وأخذ رجلٌ (حُلِيَّ) فاطمة بنت الحسين و(خلخاليها الذهبيين)، وهو يبكي، فقالت له باندهاش:

- ما يبكيك؟

فقال، وقد أسودَّ وجهه:

- أأسلبُ بنت رسول الله (ص) ولا أبكي؟

فقالت له فاطمة باسترحام:

- فدعه ولا تسلبني!

فردَّ في قذارة نفس:

- أخافُ أن يأخذه غيري!

ثم أخذوا (قرط) أم كلثوم أخت الحسين، حتى قطعوا أذنها من جهة الحلقة، ثم نزعوا (الملاحف) عن ظهور النِّساء، و(المقانع) من رؤوس بعضهن، و(الخواتم) من أصابعهن، و(الأقراط) من آذانهن، و(الحجول) من أرجلهن، فاستنكرت عليهم إحدى النساء من قبيلة بكر بن وائل فعلهم، وقد جاءت مع زوجها في جيش عمر بن سعد، فقالت في تحريض:

- يا آل بكر، أتُسلب بنات رسول الله وأنتم تنظرون، يا لثارات المصطفى؟!

فردها زوجها إلى رحله.

ثم انتهى حميد بن مسلم ومن معه إلى خيمة السَّجاد، وكان مُتمددًا على فراشه من شدَّة المرض، فقال شمر ومن معه من الرَّجالة؟

- ألا نقتُل هذا؟

فقال لهم حميد في استعطاف:

- سبحان الله! أيُقتل الغلمان؟ إنما هو غلام، ويكفيه ما به.

لكنه أصر على قتله، فوقعت عليه لبؤة آل علي عمته "زينب"، وهي تقول باستئساد:

- والله لا يُقتل حتى أُقتل.

فكف عنه شمر، ثم جاء عمر بن سعد، فصاحت النسوة في وجهه وبكين، فقال لأصحابه:

- لا يدخل أحد منكم بيوت هذه النسوة، وليُرجِع كل منكم ما أخذه.
فلم يرجع أي من أولئك الأوغاد ما استولى عليه.
بل أُجبرن على الخروج من فسطاط الحسين مسلوباتٍ حافياتٍ باكياتٍ، ثم أضرموا النيران في تلك الخيام، فجلست بعضهن على الأرض، وهن يحثين التراب على رؤوسهن، وفر بعض الأطفال هائمين في تلك الصحراء الحارقة، وهم يتصايحون.

الفصل الثالث

مسيرة السبي الزينبي

34

سرَّح عمر بن سعد برأس الحسين مع "خولي بن يزيد الأصبحي" و"حميد بن مُسلم الأزدي" ليلًا، فجاءا به إلى باب القصر وكان مُغلقًا، فأخذه "خولي" إلى منزله، وكانت له امرأتان، إحداهما من بني أسد، وأخرى تُدعى "النَّوار بنت مالك الحضرمي"، كان يخفي شيئًا تحت إجَّانة، فسألته باندهاش:

- ما الخبر؟

- جئتك بغنى الدَّهر، هذا رأس الحسين معي في الدَّار.

فاستنكرت عليه فعله، وقالت:

- جاء النَّاسُ بالفضة والذَّهب، وجئت برأس ابن بنت رسول الله!! والله لا يجمع رأسي ورأسك شيء أبدًا.

فأبت أن تواطنه فدعا الأسدية، وخرجت النوار إلى فناء الدار، ورأت عجبًا، فقالت:

- والله ما زلتُ أنظرُ إلى نورٍ يسطع مثل العمود من السَّماء إلى الإجانة، ورأيت طيرًا ترفرفُ حولها.

فلما أصبح أخذ الرأس الشريف إلى عبيد الله بن زياد، فتقدَّم إليه وأنشد:

املأ ركابي فضَّـــة أو ذهبا إنِّي قتـــلت الملك المُحجَّبا

قتلت خير النَّاس أمًّا وأبا وخيرَهُم إذ يذكرون النَّســـبا

فغضب منه ابن زياد، وقال له في استنكار ووعيد:

- ويحك! فإنْ عَلِمت أنه خير الناس أبًا وأمًّا لِمَ قتلته إذن؟

ثم أمر به، فقدمه وضُربت عنقه.

أما بقية الرؤوس، فأمر ابن سعد بإزالة ما عليها من دماء، ثم بعث بها مع شمر بن ذي الجوشن، وقيس بن الأشعث، وعمرو بن الحجاج الزبيدي، فساروا بها إلى "الكوفة".

أتم ابن سعد يوم العاشر من محرم في أرض المعركة، وأمر جنده بقطع بقية رؤوس الشهداء من أهل بيت الرسول (ص) ومواليهم، وقسَّمها بين القبائل المشاركة في مجزرة كربلاء، فأعطى قبيلة كندة وزعيمهم "قيس بن الأشعث" ثلاثة عشر رأسًا، وهوازن وزعيمهم "شمر بن ذي الجوشن" عشرين رأسًا، وتميم سبعة عشر رأسًا، وبني أسد ستة رؤوس، ومذحج وزعيمهم "عمرو بن الحجاج الزبيدي" سبعة رؤوس، وأعطى بقية القتلة

ثلاثة عشر رأسًا، وساروا بها نحو قصر الإمارة في الكوفة، ووصلوا في يوم الحادي عشر من محرم.

ثم أمر عمر بن سعد بجمع قتلاه، فصلى عليهم ودفنهم، وترك الحسين بن علي وأهل بيته وأصحابه على بوغاء كربلاء، تصهر أجسادهم الشمس الحارقة دون مواراة!

فلما انتصف النهار خرج، وبقية أفراد الجيش بعد زوال شمس يوم الحادي عشر، وأخذ معه من تخلف من عيال الحسين، ونسائه من بني هاشم وغيرهم، وأركبوهم على أقتاب الجمال بغير وطاء، مكشَّفات الوجوه، وسار بهم بين الأعداء كما يُساق سبي الترك والروم.

مروا بهم على مصارع القتلى، فتوقفت "زينب" عند جسد "الحسين"، وأزالت السهام من جسده، وصارت تندبه، ومما قالت:

- يا محمداه، صلى عليك مليك السماء، هذا حسينٌ بالعراء، مرمَّلٌ بالدِّماء، مقطَّع الأعضاء، محزوز الرأس من القفا، مسلوب العمامة والرداء، وبناتك سبايا.. بأبي العطشان حتى مضى.. بأبي ابن فاطمة الزهراء سيدة النساء.

فكأنما نصبت مجلسًا، فأبكت كل من سمعها.

ثم اعتنقت "سكينة" جسد أبيها الطاهر، وصارت تندبه، ولم تفارقه إلا بعد سحبها عنه.

أما "زين العابدين"، فعظم ذلك في نفسه، وكادت تخرج روحه، فقالت له زينب:

- ما لي أراك تجود بنفسك يا بقية جدِّي وأبي وإخوتي؟

فرد عليها بمشقة:

- كيف لا أجزع وقد رأيتهم مجزرين مرمَّلين بالعراء، مسلَّبين من غير تكفين.. وكأنَّهم من الديلم أو الخزر!

وقع النسوة والأطفال على قتلاهم يبكونهم ويندبنهم، ثم سار ركب السبايا يتقدمهم الإمام السَّجاد، وعمته الحوراء زينب يقطعون الصحراء الموحشة إلى أن وصلوا قصر الإمارة.

يقول بشير بن خزيم:

- نظرت إلى "زينب بنت علي" يومئذ، ولم أر خفرةً أنطق منها، كأنَّها تفرغ من لسان أمير المؤمنين علي، وقد أومأت إلى النَّاس أن اسكتوا، فارتدت الأنفاس وسكنت الأجراس، ومما قالت بعد أن حمدت الله وأثنت عليه:

- "يا أهل الكوفة يا أهل الختل والغدر.. أتبكون؟ فلا رقأت الدمعة، ولا هدأت الرَّنة إن مثلكم كمثل "التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثًا، تتخذون أيمانكم دَخَلًا بينكم"، ألا وهل فيكم إلا الصَّلف والنَّطف، والصَّدر الشَّنِف، وملق الإماء، وغمز الأعداء، أو كمرعى على دمنة، أو

كفضة لمن على ملحودة، ألا ساء ما قدَّمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم، وفي العذاب أنتم خالدون. أتبكون وتنتحبون؟! إي والله فابكوا كثيرًا، واضحكوا قليلًا، فلقد ذهبتم بعارها وشنارها، ولن ترحضوها بغسل بعدها أبدًا، وأنى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ومعدن الرِّسالة، وسيد شباب أهل الجنَّة.. ويلكم يا أهل الكوفة. أتدرون أي كبدٍ لرسول الله فريتم؟... وأي دمٍ سفكتم؟... أفعجبتم أن أمطرت السماء دمًا، ولعذاب الآخرة أخزى.

فبكى الناس، يقول بشير:

- رأيت شيخًا إلى جانبي يبكي حتى اخضلت لحيته.

ثم خطبت فيهم فاطمة بنت الحسين، ومما قالت:

- لقد كذِّبتمونا، وكفَّرتمونا، ورأيتم قتالنا حلالًا، وأموالنا نهبًا، كأننا أولاد ترك وكابُل، كما قتلتم جدَّنا بالأمس، وسيوفكم تقطر من دمائنا أهل البيت؛ لحقد مُتقدِّم.. ومكرتم والله خير الماكرين.. تبًّا لكم فانتظروا اللعنة والعذاب.. والله قست قلوبكم، وغلظت أكبادكم، وطبع على أفئدتكم، وختم على سمعكم وبصركم.. أيفتخر بقتل قوم زكاهم الله، وأذهب عنهم الرِّجس.

فارتفعت الأصوات بالبكاء والنحيب وقالوا:

- حسبك يا ابنة الطَّيبين، فقد أحرقت قلوبنا.

ثم خطبت أم كلثوم ابنة علي أمير المؤمنين، ومما قالت:

- "يا أهل الكوفة ما لكم خذلتم حُسينًا وقتلتموه، وانتهبتم أمواله وورثتموه، وسبيتم نساءه ونكبتموه، فتبًّا لكم وسحقًا، ويلكم أتدرون أي دواهٍ دهتكم؟ وأي وزرٍ على ظهوركم حملتم، وأي دماء سفكتموها، وأي كريمةٍ أصبتموها؟ وأي صبيةٍ سلبتموها؟ قتلتم خير رجالات بعد النبي (ص)، ونزعت الرحمة من قلوبكم "ألا إن حزب الله هم الفائزون".

فبكى النسوة وحثون التراب على رؤوسهن.

ثم أومأ زين العابدين إلى الناس أن اسكتوا، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر النبي وصلى عليه، ثم عرَّفهم بنفسه، ومما قال:

- أنا ابن المذبوح بشطِّ الفرات.. أن ابن من قُتل صبرًا.. أيها الناس لقد كتبتم إليه وخدعتموه.. وقاتلتموه، فتبًّا لما قدَّمتم لأنفسكم.. بأي عينٍ تنظرون إلى رسول الله (ص) إذ يقول لكم: قتلتم عترتي، وانتهكتم حرمتي، فلستم من أمَّتي!

فضج الناس بالبكاء، ثم قال له أُناس:

- إنا حرب لحربك، وسلم لسلمك.

فقال لهم مستنكرًا:

- هيهات هيهات أيُّها الغدرة المكرة، حيل بينكم وبين شهوات أنفسكم، أتريدون أن تأتوا إليّ كما أتيتم آبائي من قبل، كلَّا وربِّ الراقصات "الإبل" إلى منى، فإن الجرح لمَّا يندمل.

ثم جلست زينب مُتنكِّرة، فسأل ابن زياد عنها، فقيل له هي، فأقبل وقال لها في شماتة:

- الحمد لله الذي فضحكم، وأكذب أحدُوثتكم.

فردَّت عليه لبؤة آل محمد:

- إنَّما يُفتضح الفاسق ويكذب الفاجر، وهو غيرنا.

فكشَّر عن أنيابه، وابتسم ابتسامة صفراء:

- كيف رأيت صُنع الله بأخيك وأهل بيتك؟

فقالت بتسليم لرب العالمين:

- ما رأيتُ إلا جميلًا، هؤلاء قومٌ كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم، فتحاج وتُخاصم، فانظر لمن يكون الفَلَج يومئذٍ، هبلتك أمُّك يا بن مُرجانة.

فغضب ابن زياد، واحمرَّت عيناه، واتسع شدقه، فهم أن يقتلها، فقال له عمرو بن حريث:

- إنها امرأة، ولا تُؤخذ بشيء من منطقها.

ثم التفت ابن زياد إلى علي بن الحسين السَّجاد، فقال باستغراب:

- من هذا؟

فقيل له:

- علي بن الحسين.

فقال بغضب:

- أليس قد قتل الله علي بن الحسين؟

فقال له عليٌّ السَّجاد:

- كان لي أخ اسمه علي بن الحسين، وقد قتله النَّاس.. "الله يتوفى الأنفس حين موتها، والتي لم تمت في منامها؟"

فأحسَّ بإحراج وتلعثم، فقال والشرر يتطاير من عينيه:

- ألك جرأة على جوابي؟ اذهبوا به فاضربوا عُنقه.

فسمعت زينب، فحالت بينهم وبينه، وقالت:

- يا بن زياد إنَّك لم تُبقِ منا أحدًا، فإن كُنت عزِمت على قتله، فاقتلني معه!

فقال السَّجاد في عنفوان، وشجاعة الهاشميين:

- أبالقتل تهددني يا بن زياد، أما علمت أنَّ القتل لنا عادة، وكرامتنا من الله الشهادة.

35

يأمرهم ابن زياد أن يأخذوا علي بن الحسين والزينبيات إلى "دار" بجنب المسجد الأعظم.

لم يستقر علي بن الحسين "زين العابدين" في تلك الدار، فسرعان ما حضر إلى كربلاء؛ لدفن الأجساد، وحضر معه الرسول (ص) وعلي بن أبي طالب، وفاطمة الزهراء، والحسن المجتبى، والملائكة.

وفي خضم ذلك نزل طائفة من أهل الغاضرية من بني أسد، الذين كانوا يسكنون قريبًا من ساحة القتال، إلى جنب نهر العلقمي، وقد خرجت نساؤهم يستقين من "نهر الفرات" في يوم الثالث عشر من محرم، وإذا بهن يرون جثثًا حول المسنَّاة، وأخرى نائية عنه. كانت جثثًا لها مهابة، تسطع منها الأنوار، وتفوح منها رائحة كالمسك والعنبر، فتصارخن، ثم رجعن إلى رجالهن، وقلن لهم:

- يا بني أسد، أنتم جلوس في بيوتكم، وهذا الحسين وأهل بيته وأصحابه مجزَّرين كالأضاحي على الرمال، تسفي عليهم الرِّياح، فبماذا تعتذرون من رسول الله وأمير المؤمنين وفاطمة الزهراء إذا وردتم عليهم، فأنتم لم تنصروا أولادهم، ولا دافعتم عنهم بضربة سيف، ولا بطعنة رمح، ولا بجذبة سهم.

فانكسفت ألوانهم، وقال بعضهم:

- إنا نخاف بني أميَّة!

فقلن لهم بصرامة:

- إن فاتكم نصرتهم، فقوموا على مواراة أجسادهم، فإن لم تدفنوها نتولى دفنها بأنفسنا.

فجاء الرجال بعد أن وضعوا عينًا ينظر في طريق الكوفة، وإذا بفارس قد أقبل من جهة الكوفة قد ضيَّق لثامه، فخافوا وانكشفوا عن الأجساد، رأوه قد نزل عن ظهر جواده، كان يتخطى القتلى وهو منحني الظَّهر، حتى وقف على جسد الحسين، ثم رمى بنفسه عليه، واحتضه، كان يشمه تارة، ويقبله أخرى، ثم رأى قبرًا محفورًا، ولحدًا مشقوقًا، فأنزل جثته في ملحودته، ولمَّا أرادوا مساعدته، قال لهم:

- لا، إن معي من يعينني.

ثم وضع خدَّه على نحره الشريف، وهو يبكي ويقول:

- طوبى لأرض تضمَّنت جسدك الشَّريف، أما الدُّنيا فبعدك مظلمة، والآخرة بنورك مشرقة، أما الحُزنُ فسرمد، والليل مُسهَّد، حتى يختار الله لي دارك التي أنت مقيمٌ بها، فلعيك مني السلام يا بن رسول الله.

ثم وضع جسدًا مقطعًا بجنب رجله، وهو يندبه.

ثم أمرهم أن يهيلوا عليه التراب، وخطَّ على القبر بأنامله الطاهرة: "هذا قبرُ الحسين بن علي بن أبي طالب، الذي قتلوه عطشانًا غريبًا".

ثم قام ومشى ناحية المشرعة، فرأى جسدًا مُقطَّعًا، فقام بجمع أوصاله، وكفَّيه المقطوعين، ثم دعاهم إلى حفر قبر موازٍ لقبر أبيه، وهو يقول:

- على الدنيا بعدك العفا يا قمر بني هاشم، وعليك مني السلام من شهيدٍ محتسب، ورحمة الله وبركاته.

ثم أنزله في ملحودته وحده، ولم يعنه أحد، ثم أخبرهم بأنه قبر "العباس بن علي بن أبي طالب"

ثم عيَّنَ مكانًا، فحفروا حفرة بقرب جسد الحسين، وأمرهم بدفن أجساد بني هاشم، ثم حفروا حفرة كبيرة في مكان قريب، وأمرهم بدفن أجساد الأصحاب الذين كان يربوا عددهم على نيف وسبعين شهيدًا، وقد خَصُّوا "حبيب بن مظاهر الأسدي" بقبر منفرد، ولا غرابة في ذلك، فقد كان سيدًا فيهم، ونال تلك الدرجة الرفيعة بمباركة "زين العابدين".

ثم عاد "السَّجاد" إلى السبي في نفس الدار، وقد حفظه الباري عن أعين جلاوزة عبيد الله بن زياد.

فلمَّا أصبح الصباح وجدوا أم سلمة "زوج النبي" تبكي بغزارة، فسألوها:

- مم بكاؤك؟

فقالت بحرقة:

- لقد قُتل الحسين بن علي، وما رأيت رسول الله (ص) في المنام شاحب الوجه كئيبًا شعثًا مذعورًا منذ قُبض سوى تلك الليلة، فسألته عن سبب حزنه، فردَّ عليَّ والدموع قد خضلت لحيته:

- ما زلت الليلة أحفرُ قبورًا للحسين وأصحابه، والساعة عدتُ من دفنهم.

وصل أولئك القتلة بالرؤوس إلى عبيد الله بن زياد، وكانت اثنين وسبعين رأسًا، حملوها على أطراف الرماح، أمر لبعضهم بجائزة يسيرة، وحرم الآخرين.

ثم وضع ابن زياد رأس الحسين في طستٍ، فجعل ينكث في وجنتيه وثناياه بقضيب، وهو يقول بشماتة:

- إن أبا عبد الله قد شَمُط، ما رأيتُ مثل حُسن هذا الوجه قطُّ.

فقال له زيد بن أرقم، وكان من صحابة الرسول (ص)، وقد روى عنه قرابة سبعين حديثًا:

- لو نحَّيت هذا القضيب، فإن رسول الله كان يضع فاه على موضع هذا القضيب.

فرد في عنت وحقد دفين:

- يوم بيوم بدرٍ!

ثم بعث برأس الحسين وطيف به في سكك الكوفة، وأمر بنصب الرؤوس كُلِّها على الخشب.

ثم خطب ابن زياد في مسجد الكوفة وقال:

- الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله، ونصر أمير المؤمنين وأشياعه، وقتل الكذَّاب بن الكذَّاب.

فقام إليه "عبد الله بن عفيف الأزدي"، وكان من صحابة علي، وفقد عينيه في الجمل وصفين، وقال إليه بجرأة:

- إن الكذَّاب أنت وأبوك.. أتقتلون أبناء النبيين، وتتكلمون بهذا الكلام على منابر المؤمنين؟!

وثار الجدال بينهم، فغضب ابن زياد، فقال:

- عليَّ به!

فتبادرت إليه جلاوزته، فقام الأشراف فحموه وخلصوه من بين أيديهم، فأصرَّ ابن زياد على جلبه، فشنَّ حربًا شعواءَ بمساندة "قبائل مضر" بقيادة محمد بن الأشعث، فاقتتلوا قتالًا شديدًا، واقتحموا داره، فناولته ابنته سيفه، فجعل يذب عن نفسه، وهو يقول:

أنا ابن ذي الفضل عفيف الطاهر

عفيفُ شـــيخي وابن أم عـامرِ

كم دار من جمعكم وحــاســـرِ
وبطلٌ جدلـــــــــته معــــــاورِ

كان ابن عفيف يذبُّ عن نفسه، وكانت ابنته تخبره عن مكان مجيئهم عن يمينه وشماله، حتى تكاثروا عليه، فوقع أسيرًا في أيديهم، فجيء به إلى ابن زياد، فجادله، ثم أمر بقتله، فقال ابن عفيف:

- لقد سألت الله أن يرزقني الشهادة على يد ألعن خلقه، وأبغضهم إليه..
والحمد لله رزقنيها بعد اليأس منها.
فأمرهم ابن زياد بضرب عنقه، ثم صُلب في "السَّبخة".

36

كتب ابن زياد إلى "يزيد بن معاوية"، وإلى والي المدينة المنوَّرة "عمرو بن سعيد بن العاص"، يخبرهم بقتل الحسين، وسبي نسائه.

ثم سرَّح مع "زحر بن قيس"، "وشمر بن ذي الجوشن"، و"محفِّز بن ثعلبة"، و"أبي بردة الأزدي"، و"طارق بن أبي ظبيان"، برأس الحسين ورؤوس أصحابه إلى "يزيد بن معاوية" في الشام.

وأمر بنساء الحسين وصبيانه فجُهِّزوا، ثم أَصعدُوهم على بغال مؤكفة دون (برذعة)، ومنهن من أُركبن على جمال ضالعة، تتقدمهن فخر المخدرات "زينب بنت علي بن أبي طالب"، وأختاها أم كلثوم "زينب الصغرى"، وفاطمة بنت أمير المؤمنين، وفاطمة بنت الحسين، وأختاها سكينة ورقية، التي لم يكن يتجاوز عمرها أربع سنوات، والرباب زوجة الحسين أم عبد الله الرَّضيع، ورقية زوجة مسلم بن عقيل، وحميدة بنت مسلم بن عقيل، وكان عمرها ثلاث عشرة سنة، والخوصاء زوجة عقيل، وأم كلثوم الصغرى بنت عبد الله بن جعفر، وأمها زينب الكبرى، ورملة أم القاسم بن الحسن، وليلى بنت مسعود من زوجات أمير المؤمنين، و"فاطمة بنت الحسن" زوجة السجاد، وأم محمد الباقر، وممن سُبي من غير نساء بني هاشم: "حسنية" خادمة السجاد، ووزوجة عبد الله بن عمير الكلبي، و"فكيهة" خادمة

الرباب، و"بحريَّة"، وقد جاءت بصحبة زوجها جنادة بن كعب، وابنها عمرو اللذين استُشهدا في كربلاء، و"جارية" مسلم بن عوسجة، و"فضَّة" خادمة فاطمة الزهراء.

أما أسرى الرجال، فيتقدمهم علي بن الحسين "السجاد"، وقد غُلَّ إلى عنقه، وابنه "محمد الباقر"، وكان طفلًا لا يتجاوز عمره أربع سنوات، والحسن بن الحسن "المثنى"، وقد حُمل معهم وهو جريح، وعمر بن الحسين، ومحمد بن الحسين، وزيد بن الحسن، وعمر بن الحسن، ومحمد بن عمرو بن الحسن، واثنان من أبناء جعفر بن أبي طالب الأربعة، وعبيد الله بن العباس، والقاسم بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، والقاسم بن محمد بن جعفر، ومحمد بن عقيل، وعقبة بن سمعان غلام الرَّباب، وغلام عبد الرحمن بن عبد ربه الأنصاري، ومسلم بن رباح غلام أمير المؤمنين، وغلام آخر لعلي، وعلي بن عثمان المغربي، ومنعم بن ثمامة الصيداوي، وسوار بن منعم.

وقد سرَّح بهم جميعًا في أثر "رأس الحسين"، الذي حُمل على رمح طويل. ويرجح بعضهم أنهم ساروا على طريق البادية خوفًا من الاعتراضات عليهم، لكنَّ آخرين يرجحون أنَّهم ساروا بهم بطريق طويلة انتقامًا منهم، وليخوُّفوا سكان المدن من انتقام السلطة.

تعرَّض السبايا والأسرى في طريقهم إلى الشام لمختلف المصاعب والمحن، فيكفي أنهم كانوا ينظرون إلى الرؤوس الشريفة، وهي مرفوعة على السنان، يتصفَّح "الأغراب" وجوه أولئك النساء العفيفات، وهن جالسات على جمال عجفاء على أقتاب المطايا من غير وطاء، تلفح وجوههن الرياح الحارة، حافيات الأقدام، مسلبي الأقنعة، وبعضهن حاسرات الشعور، في استعراض للقوة، وانتقام لكل من يُحدث نفسه بالخروج على الحاكم الظالم.

كان ركب السبي يسير بسرعة مُفرطة دون مراعاة لمكانتهم، ولا التعب وقلة الطعام والشراب، حتى قطعوا تلك الفيافي والمنازل ووصلوا إلى "تكريت"، ثم ساروا حتى وصلوا إلى مكان وضعوا رأس الحسين فيه على صخر سقطت منه نقاط دم فسمي بـ"مشهد النقطة"، ثم ساروا نحو "وادي النخلة"، ثم "الموصل"، ثم "كحيل"، فمنزل "جهينة"، فاصطدم أهل الموصل مع من سُيِّر مع الركب الحسيني من جيش ابن سعد، فهرب الجبناء نحو "تلعفر" ثم ساروا نحو "جبل سنجار"، ووصلوا "نصيبين"، وقد زينها أبناؤها ظنًّا منهم أنهم من الخوارج، فلما علموا بمنزلتهم أرادوا منازلة أولئك الأوباش، ففروا، ووصل السبي إلى "عين الوردة"، ثم "الرقة"، ثم إلى "الجوسق" ثم "بُسر"، ثم "دعوات" وفيها كتبوا إلى والي حلب، كي يستقبلوهم بالزينة، ثم دخلوا "حلب"، وهناك طلب بعض النسوة خبزًا وماءً، فامتنعوا عن تقديمه لهن، فدعوا عليهم ألا يربح أهل ذلك الموضع،

ثم وصلوا إلى "قنسرين"، وهناك نصبُوا الرأس بجانب "صومعة الراهب"، الذي أمرهم بحمل الرأس إلى صومعته، فطلبوا منه مالًا، فأعطاهم ما يريدون.

ثم جلس في صومعته مخاطبا الرأس الشريف:

- يا رب أعط هذا الرأس القدرة على الكلام.

فنطق الرأس الشريف:

- ماذا تريد أيها الراهب؟

فسأله باستغراب:

- من أنت؟

فأجاب الرأس:

- أنا ابن محمد المصطفى، أنا ابن علي المرتضى، أنا ابن فاطمة الزهراء، أنا المقتول بكربلاء، أنا المظلوم، أنا العطشان.

فاقترب الراهب من الرأس، ووضع خدَّه على خدِّه، وسأله أن يشفع له، فطلب منه الحسين أن يُعلن إسلامه أولًا، فتشهَّد الشهادتين، فقبل الحسين الشفاعة له.

أما الأموال التي استلموها، فتحوَّلت إلى حجارة، وقد كُتب عليها آية من كتاب الله: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: 227].

ثم سار ركب السبايا نحو "معرَّة النَّعمان"، ثم "شيزر"، فمنطقة "كفر طالب" و"سيبور" و"حماة"، وكانت أبوابها مغلقة، فتوجَّهوا إلى "حِمص" فرمى أهلها اتباع ابن زياد بالحجارة، فتوجهوا إلى "بعلبك"، ثم اقتربوا من دمشق، فقالت "أم كلثوم" إلى "شمر بن ذي الجوشن":

- لي إليك حاجة.

فقال لها الشمر بسخرية:

- وما حاجتك؟

فقالت:

- إذا دخلت دمشق فأدخلنا في دروب قليلة النظّارة، وَأْمُرْ أصحابك أن يخرِجوا الرؤوس من بين المحامل وينحوها، فقد خُزينا من كثرة النَّظر إلينا، ونحن في هذا الحال.

فأمر أن تُرفع الرؤوس على الرماح وسط المحامل، واختار أكثر الطرق نظَّارة، حتى جاء بهم إلى "باب دمشق"، فأُقيموا على درج باب المسجد الجامع، في موضع مخصص للسبي بانتظار إذن يزيد بدخولهم، وفي الأثناء مرَّ بهم شيخ طاعن في السن، فالتفت إليهم، وقال بشماتة:

- الحمد لله الذي قتلكم وأهلككم، وأراح العباد من رجالكم، وأمكن أمير المؤمنين منكم.

فالتف إليه علي بن الحسين "السَّجاد"، وقال له بخلق قويم:

- يا شيخ، هل قرأت القرآن؟

ففتح فاه، وأجاب باستغراب:

- نعم.

فقال له السَّجاد:

- فهل قرأت هذه الآية: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: 23]؟

فقال دون تردد:

- قرأت ذلك.

ثم سرد عليه السَّجاد آية: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ [الأنفال: 41]، وآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33]، وهو يجيب بنعم، ففاجأه السجاد:

- فنحن أهل البيت الذين خصصنا به.

فبهت الشيخ، وتندَّم، ثم رفع يده إلى السماء معلنًا توبته، ثم رمى عمامته وقال:

- اللهم إني أبرأ إليك من عدو آل محمد من جن وإنس.

ثم التفت نحو السَّجاد:

- هل لي من توبة يا بن رسول الله؟

- نعم، إن تبت تاب الله عليك.

فلما بلغ يزيد توبته وتبرأه منه أمر بقتله.

كان سهل بن سعد الساعدي من صحابة الرسول، وقد خرج في زيارة إلى بيت المقدس، فرأى دمشق مُزيَّنة بالحجب والديباج، وهم فرحون مستبشرون، ونساؤهم تضرب بالدفوف، فسألهم باستغراب:

- ألكم عيدٌ لا نعرفه؟!

فقال له بعض المارة:

- هذا رأس الحسين يُهدى من العراق.

ففتح عينيه على مصراعيها، وسألهم عن الباب الذي سيدخلون منه، فقالوا له:

- باب الساعات.

فانتظرهم قليلًا، وإذا برايات قد أقبلت، وفارس يحمل رأسًا على رمح كأنه رأس رسول الله (ص)، وورائه نسوة على جمال بغير وطاء، فتقدَّم نحو إحداهن، فسألها:

- من أنت؟

- أنا سكينة بنت الحسين!

ثم سألها عن حاجتها، فقالت:

- قل لحامل الرأس أن يتقدم أمامنا؛ حتى ينشغل الناس بالنظر إليه، ويكفُّوا عن النظر لحرم رسول الله (ص).

فتقدَّم سهل نحو حامل الرأس، وسلَّمه أربعمائة درهم ففعل.

وما لبث أن رأى سهل عجوزًا ترمي الرأس بحجارة، فرفع يده نحو السماء، ودعا عليها بالهلاك.

ثم وضعوا رأس الحسين في طشت، وأدخلوهم على يزيد بن معاوية، وكان جالسًا على سريره، وعليه تاج مكلل، وحوله أصحابه، كان فرحًا مسرورًا، فقام من سريره وهو يردد:

لما بدت تلك الحمول وأشـــرفت تلك الرؤوس على شـفا جيرونِ

نعِب الغراب فقلت صح أو لا تصحْ فلقد قضيتُ من الرَّسول ديونِي

ثم تقدَّم شمر بن ذي الجوشن، وخلفه الأسارى وهم مقرنون بالحبال، فقال السجاد معاتبًا:

- أُنشدك بالله يا يزيد، ما ظنُّك برسول الله لو رآنا على هذا الحال، ما كان يصنع؟

فأمر يزيد بالحبال فَقُطعت، ثم وضعوا رأس الحسين في طشت بين يديه، ومن خلفه النساء، فلما رأت زينب رأس أخيها صرخت:

- يا حسيناه، يا حبيب رسول الله، يا بن مكة ومنى، يا بن فاطمة الزهراء، يا بن بنت المصطفى.

فبكى كل من كان في المجلس، فصرخت امرأة في المجلس وندبت الحسين، ثم تربَّع يزيد على سرير الملك وترنَّم:

ليت أشيـــــاخي ببدرٍ شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأســـل
لأهلـــــوا واستهلــــوا فرحًا ... ثم قالــوا يا يزيـــــد لا تُشل
قد قتلنا القرم من ســــاداتهم ... وعدلنـــــــاه ببـــدر فاعتدل
لعبت هـــــــاشمُ بالملكِ فـلا ... خبرٌ جـــــــاء ولا وحـــي نزل
لســت من خُندف إن لم أنتقم ... من بنـــــي أحمد ما كـان فعل

فقام "مروان بن الحكم" وكان في غاية الفرح والسرور، فنظر إلى الرأس الشريف وأنشد في شماتة وخسَّة:

يا حبَّـذا بردُك في اليديـــــن ... ولونُك الأحمرُ في الخدَّيــنِ
أخذتُ ثاري وقضيتُ ديني ... شَفيتُ قلبي من دم الحسينِ

ثم قام يزيد ومشى نحو الرأس الشريف، فأخذ قضيبًا، وراح ينكث ثنايا الحسين، وهو يقول شامتًا:

- يومٌ بيومِ بدر. كان أبوعبد الله حسن المضحك. فاعترض عليه أبو برزة الأسلمي، وكان من صحابة رسول الله:

- ويحك يا يزيد، أتنكت بقضيبك ثغر الحسين؟! أشهد لقد رأيت رسول الله (ص) يرشُف ثناياه، وثنايا أخيه الحسن، ويقول إنَّهما سيدا شباب أهل الجنَّة.

فغضب منه، وأمر بإخراجه، فسحبوه خارج المجلس على كِبر سنِّه.

ثم التفت يزيد نحو السَّجاد، وقال في شماتة وانتقام:

- إن أباك قطع رحمي، وجهل حقِّي، ونازعني سُلطاني، فصنع الله به ما قد رأيت.

فتلا السَّجاد في سكينة وتسليم:

- ﴿ما أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: 22].

فقال يزيد في تفاخر وغرور:

- ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 30].

فقال السَّجاد محذرًا:

- ويلك يا يزيد لو تدري ما صنعت.. لهربت إلى الجبال، وافترشت الرمال، ودعوت بالويل والثبور أن يكون رأس الحسين بن فاطمة وعلي، منصوبًا على باب مدينتكم، وهو وديعة رسول الله (ص) فيكم! فأبشر بالخزي والنَّدامة غدًا، إذا جُمِع الناس ليوم القيامة.

37

قامت عقيلة الطالبيين زينب بنت علي، وخطبت فيهم خطبة عصماء، ومما قالت:

- "الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على رسوله وآله أجمعين، صدق الله سبحانه حيث يقول: (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُون)

أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نُساق كما تُساق الأُسارى أنَّ بنا على الله هوانًا وبك عليه كرامة، وإنَّ ذلك لعِظَمِ خَطَرِكَ عنده، فشمَخْتَ بأنفِكَ، ونظرت في عطفِك، جذلان مسرورًا، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأمور متَّسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا، فمهلًا مهلًا، أنسيت قول الله تعالى:

(وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ)؟

أمِن العدل يا بن الطلقاء، تخديرك حرائرك وإماءك، وسوقك بنات رسول الله سبايا، قد هتكت ستورهن، وأبديت وجوههن، تحدو بهنَّ الأعداء من بلد الى بلد، ويستشرفهن أهل المناهل والمعاقل، ويتصفَّحُ وجوههن القريب

والبعيد، والداني والشريف، ليس معهنَّ من حُماتهنَّ حميّ، ولا من رجالهنَّ وليّ، وكيف يُرتجى مراقبة من لفظ فوه أكباد الأزكياء، ونبت لحمه من دماء الشهداء، وكيف يُستَبطأ في بغضنا أهل البيت من نظر إلينا بالشنف والشنآن، والإحن والأضغان، ثمَّ تقول غير متأثِّم ولا مستعظم:

لأهلُّوا واســـتهلُّوا فرحًـا ثمَّ قـالوا يا يزيـد لا تشـــل

منحنيًا على ثنايا أبي عبد الله سيِّد شباب أهل الجنة تنكتها بمخصرتك، وكيف لا تقول ذلك، وقد نكأت القرحة، واستأصلت الشأفة، بإراقتك دماء ذريَّة محمد صلى الله عليه وآله، ونجوم الأرض من آل عبد المطلب، وتهتف بأشياخك زعمت أنَّك تناديهم، فلترِدنَّ وشيكًا موردهم، ولتودنَّ أنَّك شُلِلتَ وبُكِمت، ولم تكن قلت ما قلت وفعلت ما فعلت. اللهم خذ لنا بحقِّنا، وانتقم ممن ظلمنا، واحلل غضبك بمن سفك دماءنا، وقتل حماتنا.

فوالله ما فريت إلا جلدك، ولا حززت إلا لحمك، ولتردنَّ على رسول الله صلى الله عليه وآله بما تحمَّلت من سفك دماء ذريته، وانتهكت من حرمته في عترته ولحمته، حيث يجمع الله شملهم، ويلمَّ شعثهم، ويأخذ بحقّهم (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا، بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ).

وحسبك بالله حاكمًا، وبمحمَّد صلى الله عليه وآله خصيمًا، وبجبرائيل ظهيرًا، وسيعلم من سوّل لك ومكَّنَك من رقاب المسلمين بئس للظالمين بدلًا وأيّكم شرٌّ مكانًا، وأضعف جندًا.

ولئن جرَّت عليَّ الدواهي مخاطبتك، إنّي لأستصغر قدرك وأستعظم تقريعك، وأستكثر توبيخك، لكن العيون عبرى، والصدور حرى.

ألا فالعجب كل العجب، لقتل حزب الله النجباء، بحزب الشيطان الطلقاء، فهذه الأيدي تَنْطُفُ من دمائنا، والأفواه تتحلّب من لحومنا، وتلك الجثث الطواهر الزواكي تنتابها العواسل، وتعفرها أمّهات الفراعل، ولئن اتّخذتنا مغنمًا، لتجدنَّا وشيكًا مغرمًا، حين لا تجد إلا ما قدَّمت يداك، وما ربُّك بظلام للعبيد، وإلى الله المشتكى وعليه المعوَّل.

فكد كيدك، واسع سعيك، وناصب جُهدَك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا يرحض عنك عارها، وهل رأيك إلا فند وأيَّامك إلا عدد، وجمعك إلا بدد، يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين.

والحمد لله رب العالمين، الذي ختم لأوَّلنا بالسعادة والمغفرة ولآخرنا بالشهادة والرحمة، ونسأل الله أن يكمل لهم الثواب، ويُوجِب لهم المزيد، ويحسن علينا الخلافة، إنّه رحيم ودود، وحسبنا الله ونعم الوكيل".

فقال يزيد للتشويش عليها:

يا صيحةً تحمدُ من صوائح ما أهون الموت على النوائح

ثم قام رجل شامي، فأشار إلى "فاطمة بنت الحسين"، وقال في وقاحة:

- يا أمير المؤمنين. هب لي هذه الجارية.

فارتعدت، وأخذت بثياب عمتها زينب، التي ردَّت عليه بعنفوان:

- كذِبت والله ولؤمت، ما ذلك لك ولا له.

فغضب يزيد، واحمرت عيناه:

- بل أنتِ كذبتِ، إن ذلك لي، ولو شئت لفعلت.

فردت بشموخ:

- كلَّا والله ما جعل الله ذلك لك، إلا أن تخرُج من ملَّتنا، وتدين بغير ديننا.

فانخسف وجهه:

- إياي تستقبلين بهذا؟ إنما خرج من الدين أبوك وأخوك.

فقالت بثبات:

- بدين الله، ودين أبي وجدِّي اهتديت..

فتطاير الشرر من عينيه:

- كذِبت يا عدوة الله.

خنس الشامي، لكنه كرر عليه الطلب، فغضب يزيد وأبان له من تكون، فتندم ولعنه، ثم خاطبه مستنكرًا:

- تقتل عترة نبيِّك وتسبي ذريّته، والله ما توهَّمت إلا أنَّهم سبي الرُّوم.

فغضب منه يزيد، وأمر به أنْ تُضرب عنقه.

38

دعا يزيد بالخطيب، وأمره أن يصعد المنبر ويذم أمير المؤمنين والحسين، فصعد وبالغ في ذمهما ومدح معاوية ويزيد، فصاح زين العابدين:

- ويلك أيها الخاطب، اشتريت مرضاة المخلوق بسخط الخالق، فتبوَّأ مقعدك من النَّار.

ثم التفت إلى يزيد:

- أتأذن لي أن أصعد هذه الأعواد، فأتكلَّم بكلماتٍ فيهنَّ لله رضًا، ولهؤلاء الجالسين أجرٌ وثواب.

فأبى يزيد:

فقال الناس مقللين من خطره:

– يا أمير المؤمنين! ائذن له ليصعد، فلعلّنا نسمع منه شيئًا.

فقال لهم والخوف يتراقص في عينيه:

– إن صعد المنبر هذا لم ينزل إلّا بفضيحتي وفضيحة آل أبي سفيان.

فقالوا مستهزئين:

- وما قدرُ ما يُحسِن هذا؟

فقال بإقرار:

- إنّه من أهل بيت قد زقّوا العلم زقًّا.

ولم يزالوا به حتّى أذن له بالصعود. فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ خطب خطبة أبكى منها العيون، وأوجل منها القلوب، فقال فيها:

- أيّها الناس! أُعطينا ستًّا، وفُضّلنا بسبع: أعطينا العلم، والحلم، والسماحة، والفصاحة، والشجاعة، والمحبّة في قلوب المؤمنين، وفُضّلنا بأنّ منّا النبي المختار محمَّدًا صلّى الله عليه وآله، ومنّا الصدّيق، ومنّا الطيّار، ومنّا أسد الله وأسد الرسول، ومنّا سيّدة نساء العالمين فاطمة البتول، ومنّا سبطا هذه الأُمّة، وسيّدا شباب أهل الجنّة، فمن عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي: أنا ابن مكّة ومِنى، أنا ابن زمزم والصَّفا، أنا ابن من حمل الزكاة بأطراف الرداء، أنا ابن خير من ائتزر وارتدى، أنا ابن خير من انتعل واحتفى، أنا ابن خير من طاف وسعى، أنا ابن خير من حجّ ولبَّى، أنا ابن من حُمل على البراق في الهوا، أنا ابن من أُسرِى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فسبحان من أسرى، أنا ابن من بلغ به جبرائيل إلى سدرة المنتهى، أنا ابن من دنا فتدلّى فكان من ربّه قاب قوسين أو أدنى، أنا ابن من صلّى بملائكة السماء، أنا ابن من أوحى إليه

الجليل ما أوحى، أنا ابن محمّد المصطفى، أنا ابن علي المرتضى، أنا ابن من ضرب خراطيم الخلق حتّى قالوا: لا إله إلّا الله، أنا ابن من ضرب بين يدي رسول الله بسيفين، وطعن برمحين، وهاجر الهجرتين، وبايع البيعتين، وصلّى القبلتين، وقاتل ببدر وحنين، ولم يكفر بالله طرفة عين.

أنا ابن صالح المؤمنين ووارث النبيّين، وقامع الملحدين، ويعسوب المسلمين، ونور المجاهدين، وزين العابدين، وتاج البكّائين، وأصبر الصابرين، وأفضل القائمين من آل طه وياسين، أنا ابن المؤيَّد بجبرائيل، المنصور بميكائيل، أنا ابن المحامي عن حرم المسلمين، وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، والمجاهد أعداءه الناصبين، وأفخر من مشى من قريش أجمعين، وأوّل من أجاب واستجاب لله من المؤمنين، وأقدم السابقين، وقاصم المعتدين، ومبير المشركين، وسهم من مرامي الله على المنافقين، ولسان حكمة العابدين، ناصر دين الله، وولي أمر الله، وبستان حكمة الله، وعيبة علم الله، سمح سخي، بهلول زكي، أبطحي رضي مرضي، مقدام همام، صابر صوام، مهذب قوام، شجاع قمقام، قاطع الأصلاب، مفرق الأحزاب، أربطهم جنانًا، وأطبقهم عنانًا، وأجرؤهم لسانًا، وأمضاهم عزيمة، وأشدّهم شكيمة، أسد باسل، وغيث هاطل، يطحنهم في الحروب إذا ازدلفت الأسنة، وقربت الأعِنَّة طحن الرَّحى، ويذروهم ذرو الريح الهشيم، ليث الحجاز؛ وصاحب الإعجاز؛ وكبش العراق، الإمام بالنصّ

والاستحقاق، مكّي مدني، أبطحي تهامي، خيفي عقبي، بدري أُحدي، شجري مُهاجري، من العرب سيّدها، ومن الوغى ليثُها، وارث المشعرين، وأبو السبطين، الحسن والحسين، مظهر العجائب، ومفرق الكتائب، والشهاب الثاقب، والنور العاقب، أسد الله الغالب، مطلوب كلّ طالب، غالب كلّ غالب، ذاك جدّي علي بن أبي طالب.

أنا ابن فاطمة الزهراء، أنا ابن سيّدة النساء، أنا ابن الطهر البتول، أنا ابن بضعة الرسول..

ولم يزل يقول: "أنا.. أنا.." حتّى ضجّ الناس بالبكاء والنحيب، وخشي يزيد أن تكون فتنة، فأمر المؤذّن: أن يؤذّن، فقطع عليه الكلام وسكت، فلمّا قال المؤذّن:

- الله أكبر!

قال عليّ بن الحسين:

- كبّرت كبيرًا لا يُقاس، ولا يُدرك بالحواس، لا شيء أكبر من الله.

فلمّا قال المؤذن:

- أشهد أن لا إله إلّا الله!

قال السَّجاد:

- شهد بها شعري وبشَري، ولحمي ودمي، ومخي وعظمي.

فلمّا قال:

– أشهد أنّ محمّدًا رسول الله!

التفت عليّ "زين العابدين" من أعلى المنبر إلى يزيد، وقال بشجاعة حيدرية:

- يا يزيد! محمّد هذا جدّي أم جدّك؟ فإن زعمت أنّه جدّك فقد كذبت، وإن قلت: إنّه جدّي، فلِمَ قتلت عترته؟

ولمَّا فرغ المؤذّن من الأذان والإقامة، تقدّم يزيد وصلّى صلاة الظهر!

وكان في المجلس حبرٌ من أحبار اليهود، فسأل عن الخاطب، فقيل له علي بن الحسين "السَّجاد"، فلما علم بنسبه استنكر عليهم ذلك وقال:

- لو ترك فينا موسى بن عُمران سبطًا من صلبه، لظننا أنا كُنَّا نعبده من دون ربِّنا، وأنتم فارقتم نبيكم بالأمس، فوثبتم على ابنه فقتلتموه، سوءة لكم من أمة.

39

أمر يزيد بالسبي، فانزلوهم في خربة الشام بمنزل لا يقيهم من حر أو برد، فأقاموا به حتى تقشَّرت وجوههم، وكانوا مدة إقامتهم ينوحون على الحسين، فلما كان اليوم الرابع رأت "سكينة" جدتها "فاطمة الزهراء" في المنام ومعها قميص، وهي تقول:

- لقد قطَّعت نياط قلبي، هذا قميص الحسين لا يفارقني حتى ألقى الله به.

بعد أيام من وجودهم في الشام، بينما كان يزيد قائمًا، وهو يحمل كأس الخمرة، والرأس الشريف بين يديه، وفي المجلس رسول ملك الروم، فسأل باستغراب:

- لمن هذا الرأس؟

- للحسين بن علي بن أبي طالب، وأمه فاطمة الزهراء.

فتساءل الرسول باندهاش أكبر:

- بنت من؟!

- بنت الرسول!

فغضب النصراني:

- أفٍّ لك ولدينك، اعلم أني من أحفاد النبي داود، وهم يتبركون بأخذ التراب من تحت قدمي، وأنتم تقتلون ابن بنت نبيكم، وما بينه وبين نبيكم إلا أم واحدة!!

ثم بين لهم بإسهاب:

- إن في بلدتنا حافر يُقال إنه حافر حمار كان يركبه عيسى المسيح، فزينوه بالذهب والديباج، وفي كل عام يزوره علماؤنا، ويرفعون حوائجهم إلى الرَّب. وأنتم تقتلون ابن بنت نبيكم؟!

فقام يزيد يجر خيبته مرتبكًا، وقال باستهتار وإيغال في سفك الدماء البريئة:

- اقتلوا هذا النصراني؛ لئلا يفضحني في بلاده.

فلما تيقن الرومي بقرب قتله أخبره برؤيته رسول الله (ص) في المنام، وهو يبشره بالجنة، فتشهد الشهادتين، ثم هوى على رأس الحسين يقبله وضمه إلى صدره وهو يبكي بحرارة، ثم سحبوه فقتلوه.

كانت للحسين طفلة صغيرة لها من العمر أربع سنوات أو ثلاث قيل اسمها "رُقيَّة"، كانت معهم في مسكن خربة الشام، نامت في إحدى الليالي، وانتبهت مذعورة باكية، ففتحت عينيها وهي تردد:

- أين أبي؟ الآن رأيته في حلمي؟ أريد والدي.

ولم تزل باكية وهي تكرر طلبها، فتعالى الصراخ منها، فهاج النساء والأطفال بالبكاء، فسمع يزيد الصيحة، وكان على مقربة منهم، فسأل فقيل له ما حدث للطفلة.

فأمرهم يزيد أن يأتوا بالطفلة من الخربة، فحضر معها السبايا يتقدَّمهم أخوها علي بن الحسين وعمتها زينب، لما دخلوا قال في جسارة:

- أيتها الفتاة ألا تُريدين رؤية أبيك؟

فقالت بلهفة:

– نعم أين هو؟ أين أنت يا أبتي؟ فقد اشتقت لك كثيرًا لم أرك منذ فترة.

وبينهما هي كذلك، جاءوا برأس الحسين في طشت وهو مغطى بمنديل، ثم وضعوه بين يديها.

فقالوا لها:

- اكشفي عن المنديل لتري أبيك!

كان يزيد على تخت الملك، جالس يتسلى برؤيتها، كشفت الفتاة عن المنديل، فرأت رأس أبيها مقطوعًا مُشحَّطًا بدمه، فهوت عليه وضمته إلى صدرها، وأخذت تنادي وهو مفجوعة باكية:

- أبه يا أبه من الذي خضَّبك بدمائك؟ أبه يا أبه، من الذي قطع وريدك؟ أبه يا أبه من الذي يتَّمني على صغر سنِّي؟ أبه يا أبه من لليتيمة حتى تكبُر؟!

ثم دخلت في موجة بكاء لم تتوقف، ثم وضعت رأسها تقبله، فلم ترفعه، فخفت صوتها، وسكن أنينها، فجاءت عمتها زينب لتضمها إلى صدرها، فوجدتها يابسة، فقال لها ابن أخيها زين العابدين:

- "إنا لله وإنا إليه راجعون" خذيها يا عمّة فقد فارقت الحياة.

فبكى الحرائر عليها وارتفعت الضَّجة، فزلزلت قصر يزيد، لا سيَّما أختها أم كُلثوم.

وبدل أن يواسيهم لم تطرف له عين، بل أمر بصلب رأس الحسين على باب داره في تلك الخربة ساعات عديدة من النَّهار، فلم يزل النساء يرون الرأس وينفجرون بالبكاء، أما السَّجاد فكانت تنزل دموعه على خديه وهو يُصبِّرهم، ويدعوهن للحفاظ على سترهن، فلما علمت زوجة يزيد "هند بنت عبد الله بن عامر" بما جرى على الحسين وأهل بيته ضجَّت بالبكاء، وذهبت لزيارتهم في الخربة، فلما رآها يزيد قال لها:

- ارجعي إلى القصر كي لا تؤلِّبي الناس علينا، وإن كنت مُصرَّة على زيارتهم، فأتيهم ليلًا.

رجعت وهي تكبت حُزنها خوفًا من بطشه، فلما خيَّم الظلام، جاءت وهي تمسح الدموع من على خدِّها كي لا يشكُّ بها يزيد وزبانيته، وقد رافقتها الخادمات وهنَّ يحملن القناديل، وهي محاطة ببعض الحاشية، فأمرتهم أن

يقفوا في الخارج، بعد أن وضعوا لها كرسيًّا خاصًّا، وكانت قد اقتربت من امرأة تبدو عليها المهابة، فسألتها:

- من أي البلاد أنتم؟

رفعت زينب رأسها، ثم قالت:

- من المدينة؟

فلما سمعت باسم المدينة، فزت من على الكرسي احترامًا وإجلالًا، ثم نظرت في عين زينب فداخَلها المهابة والخوف، فقالت بوجل:

- من أنت بحق النبي عليك؟

- أنا حفيدته، ابنة علي بن أبي طالب، وأخت الحسين الذي قتلوه عطشانًا غريبًا، وها هو رأسه بين يدي يزيد ينكث في ثناياه بمخصرته، بعد أن قتلوا أهل بيته وصحابته وقطعوا رؤوسهم، وطافوا بنا في البلدان سبايا.

- أنت زينب؟

- نعم أنا زينب وهذه أختي أم كلثوم، وهؤلاء مخدرات فاطمة الزهراء بنت الرسول (ص).

تحادرت الدُّموع على خدِّ "هند"، وأجهشت بالبكاء، ثم قامت من مكانها، ورجعت إلى قصر يزيد مغضبة، ثم دخلت عليه مجلسه، وهي حافية القدمين، واستنكرت عليه فعله، ثم قالت بجرأة:

- ويلك يا يزيد، قتلت حفيد الرسول، وهتكت ستور بنات محمد، وأسكنتهم الخربة؟!

فلم يحر جوابا.

وما لبث أن أمر بإحضارهم، وقفوا أمامه، فسأل السَّجاد عن حاجاته الثلاثة التي وعده أن يقضيها له، فقال:

- الأولى: أن تُريني وجه والدي، والثانية: أن تَرُدّ علينا ما أُخِذ منَّا، أمَّا الثالثة: إن كنت عزِمت على قتلي، أنْ تُوجِّه مع هؤلاء النسوة من يرُدُّهن إلى حرم جدِّهن.

فضحك يزيد، ثم قال برعونة:

- أما وجه أبيك فلن تراه أبدًا، وأما قتلُك فقد عفوتُ عنك، وأما النِّساء فما يردهن إلى المدينة غيرُك، وأما ما أُخذ منكم، فإنني أعوضكم عنه أضعاف قيمته.

فنظر له السَّجاد باشمئزاز:

- أما مالُك فلا نُريده، وهو موفَّرٌ عليك، وإنَّما طلبت ما أُخذ منَّا؛ لأنَّ فيه مغزل فاطمةَ بنت محمدٍ، ومقنعتها وقلادتها وقميصها.

فأمر بذلك، فردَّها عليه، وزاد عليه مائتين دينار، فأخذها زين العابدين وفرَّقها على الفقراء.

ثم التفت يزيد إلى نعمان بن بشير:

- جهِّزهم بما يُصلحهم، وابعث معهم رجلًا من أهل الشَّام أمينًا صالحًا، وخيلًا وأعوانًا.

ثم قام يزيد، وهو يُمثِّل دور الضَّحية:

- لعن الله ابن مرجانة، أما والله لو أني صاحبه ما سألني خصلة أبدًا إلا أعطيته إيَّاها، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت، ولكن قضى الله ما رأيت.

مشى الركب الزينبي، كان الرسول يسايرهم بالليل فيكونون أمامه، فإذا نزلوا تنحَّى عنهم هو وأصحابه كهيئة الحرس.

ولما وصلوا طريق كربلاء قالوا للدليل:

- مرَّ بنا على طريق كربلاء لنجدد بها عهدًا.

وصل الركب الحسيني في العشرين من صفر سنة 61 للهجرة، ومعهم الرؤوس إلى مصارع القتلى، فرأوا القبور مستوية، وكان معهم "السَّجاد"، وكان على يقين بأماكن دفنهم، فلما اقتربوا من قبر الحسين، وجدوا الصحابي "جابر بن عبد الله الأنصاري" ومعه عطية العوفي، وكان قد كبُر وتلف بصره، قد اغتسل في نهر الفرات، وتطيَّب بصرة فيها (سعْد)، ولم يخطُ خطوة إلا ذكر الله، حتى دنا من القبر الشريف، فقال لعطيَّة العوفي:

- أَلْمِسْنِيه.

فلما لمس جابر القبر خرَّ مغشيًّا عليه، فرشَّ العوفي ماءً عليه، فأفاق، فصرخ، ومما قال:

- يا حسين.. يا حسين.. يا حسين، حبيب لا يجيب حبيبه، وأنىَّ لك بالجواب وقد شُحطت أوداجك على أثباجك، وفُرِّق بين بدنك ورأسك، فأشهدُ أنَّك ابن خاتم النبيين، وابن سيد المؤمنين.. وابن فاطمة سيدة النساء، وما لك لا تكون، وقد غذَّتك كفُّ سيِّد المرسلين..

ثم جال ببصره وسلم على الشهداء، وقال بقناعة:

- والذي بعث مُحَمَّدًا بالحقِّ نبيًّا، لقد شاركناكُم فيما دخلتُم فيه!

فنظر له العوفي وقال باستغراب:

- يا جابر كيف ذاك، ونحن لم نهبط واديًا، ولم نعلُ جبلًا، ولم نضرب بسيف، والقوم فُرِّق بين رؤوسهم وأبدانهم، ويُتِّمت أولادهم، ورُمِّلت زوجاتهم؟!

فردَّ جابر باطمئنان:

- كيف لا وقد سمعت حبيبي رسول الله يقول "من أحب عمل قوم حُشِر معهم..."!

ولعله توافق وجود جابر وجماعة من بني هاشم، مع وصول السبي الحسيني، فأقاموا المناحة عند قبر الحسين في الأربعين من مقتله، وبقوا هنالك أيامًا،

ثم أخذهم الدليل مرة أخرى نحو المدينة المنورة. ومنهم من ينفي تلاقيهم ويجزم بزيارتهم كربلاء في ربيع، وهناك من يؤكد أنهم وصلوا في الأربعين الثانية سنة 62هـ، وهناك من ينفي أصل الزيارة إلى كربلاء، ويرجح عودتهم مباشرة إلى المدينة المنورة.

40

اقترب الركب الحسيني نحو المدينة، فنزل السجَّاد من محمله وحطَّ رحله، وضرب فسطاطه، وأنزل نساءه، ثم التفت نحو بِشر بن حذْلَم، وكان شاعرًا، فقال له بحسرة:

- يا بِشر! رحم الله أباك، لقد كان شاعرًا، فهل تقدر على شيءٍ منه؟

- نعم، يا بن رسول الله، إنِّي لشاعر.

فقال السجاد:

- ادخل المدينة وانعِ أبا عبد الله.

ركب بشر فرسه، وجرى مسرعًا، ثم دخل المدينة، فلما بلغ المسجد النبوي أجهش بالبكاء وهو يُنْشِد:

يا أهل يثرب لا مُقام لكم بها ... قُتِل الحسين فأدمعي مدرارُ

الجسْمُ منه بكربلاء مضرَّجٌ ... والرَّأس منه على القناة يدارُ

ثم قال لهم، والحزن بادٍ على محياه:

- هذا علي بن الحسين مع عمَّاته وأخواته قد حلُّوا بساحتكم، ونزلُوا بفنائكم.

كان خبرًا صاعقًا، فلم تبقَ في المدينة مخدَّرة إلا برزت وهي تبكي وتلطم، فلم يُرَ باكٍ وباكية أشد من ذلك اليوم منذ أن قُبِض رسول الله (ص).

ثم عاد بشر لخيمة السَّجاد، فرآه قد خرج ومعه خرقة مبللة بدموعه، وجلس على كرسي يبكي، فالتفَّ النَّاس حوله وجاءوا يعزُّونه، فأومأ بيده ليسكتوا، ثم حمد الله وأثنى عليه ومما قال:

- "أيها القوم إن الله ابتلانا بمصائب جليلة،... لقد قُتل أبو عبد الله وعترته، وسُبيت نساؤه، وداروا برأسه في البُلدان.. أيُّ رجالاتٍ يُسرُّون بعد قتله، أم أيُّ عينٍ تحبس دمعها.. فلقد بكته السماوات السبع والأرض بأرجائها.. أي قلبٍ لا ينصدع لقتله.. أصبحنا مطرودين مشرَّدين.. من غير جرم اجترمناه. والله لو أن النبي (ص) تقدَّم إليهم في قتالنا، كما تقدَّم إليهم في الوصاية بنا؛ لما زادوا على ما فعلوا! فإنا لله وإنا إليه راجعون، من مصيبةٍ ما أعظمها، وأوجعها.. فعند الله نحتسب.. إنَّه عزيزٌ ذو انتقام.

فقام إليه "صوحان بن صعصعة بن صوحان"، وكان زمِنًا فاعتذر إليه، فقبل عذره.

ثم خرجت "أم لقمان بنت عقيل"، ومعها أخواتها أم هانئ وأسماء ورملة وزينب بنات عقيل بن أبي طالب، وهي تبكي قتلى الطفوف وأنشدت:

مـاذا تقُولون إذا قـال النبيُّ لكم ماذا فعلتُم وأنتُم آخِـــــر الأُممِ
بعترتي وبأهلـــي بعد مُفتقـــدي مِنهُم أُسارى وقتلى ضُـرِّجوا بدمِ
ما كان هذا جزائي إذ نصحتُ لكُم أن تُخلفوني بسـوء في ذوي رحِمي

استقبل طلحة بن عبيد الله "علي بن الحسين"، فسأله وهو يغطِّي رأسه في المحمل:

- لمن الغلبة يا علي؟

فأجاب السَّجاد بشموخ وعنفوان:

- إذا أردت أن تعلم من غلب، ودخل وقت الصَّلاة، فأذِّن ثم أَقِم.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

1- الأصبهاني، علي بن الحسين، مقاتل الطالبيين، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار الشريف الرضي، قم، 1985م.

2- ابن الأثير، عز الدين الشيباني، الكامل في التاريخ، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988م.

3- ابن الجوزي، يوسف بن فرغلي السبط، تذكرة الخواص، مكتبة نينوى الحديثة، طهران، د. ت.

4- ابن الحلي، محمد بن جعفر، مثير الأحزان، مدرسة الإمام المهدي، قم، 1986م.

5- ابن شهر آشوب، محمد بن علي المازندراني، مناقب آل أبي طالب، المطبعة العلمية، قم، د. ت.

6- ابن قولويه، جعفر بن محمد القمي، كامل الزيارات، تحقيق: جواد القيومي، نشر الفقاهة، قم، 1996م.

7- ابن كثير، إسماعيل بن عمر الدمشقي، البداية والنهاية، تحقيق: مكتبة المعارف، دار مكتبة المعارف، بيروت، 1989م.

8- أبو مخنف، لوط بن يحيى الكوفي، مقتل الحسين، جمع وتحقيق: حسن الغفاري، قم، مكتبة المرعشي، 1978م.
9- البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: تحقيق: سيد زكّار، ورياض زركلي، دار الفكر، بيروت، 1996م.
10- ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف، العراق، ط1، 1950م.
11- الحسني، هاشم معروف، سيرة الأئمة الاثني عشر، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، د. ط، 1990م.
12- الخوارزمي، موفق بن أحمد المكي، مقتل الحسين، تحقيق: محمد السماوي، مكتبة المفيد، قم، د. ت.
13- الدينوري، أحمد بن داود، الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، دار الشريف الرضي، قم، 1988م.
14- الريشهري، محمد، الصحيح من مقتل سيد الشهداء وأصحابه، مؤسسة دار الحديث العلمية الثقافية، قم، إيران، ط2، 2013م.
15- الزهري، محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد بن صامل السلمي، مكتبة الصديق، الطائف، السعودية، 1993م.
16- الصدوق، محمد بن علي ابن بويه، الأمالي، تحقيق: مؤسسة البعثة، قم، 1987م.

17- صنقور، محمد، تساؤلات حول وقائع كربلاء، حوزة الهدى للدراسات الإسلامية، البحرين، ط1، 2016م.
18- الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج على أهل اللجاج، تحقيق: إبراهيم البهادري، ومحمد هادي به، دار الأسوة، طهران، 1992م.
19- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1972م.
20- الطوسي، محمد بن الحسن، مصباح المتهجِّد، تحقيق: علي أصغر مرواريد، مؤسسة فقه الشيعة، بيروت، 1991م.
21- الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي، تحقيق: مؤسسة البعثة، دار الثقافة، قم، 1993م.
22- الكوفي، أحمد بن أعثم، الفتوح، تحقيق: علي شيري، دار الأضواء، بيروت، 1990م.
23- لجنة التاريخ، تأريخ الإسلام، ج2، المنظمة العالمية للحوزات والمدارس الإسلامية، قم، إيران، ط3، 2004م.
24- المجلسي، محمد بن باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسسة الوفاء، بيروت، 1983م.
25- المفيد، محمد بن نعمان العكبري، الأمالي، تحقيق: حسين أستاذ ولي، وعلي أكبر الغفَّاري، مؤسسة النشر الإسلامي، 1984م.

26- المفيد، محمد بن نعمان العكبري، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، مؤسسة آل البيت، قم، 1992م.
27- المقرّم، عبد الرزاق الموسوي، مقتل الحسين، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، 1979م.
28- منفرد، نظري، قصة كربلاء، دار الرسول الأعظم، بيروت، لبنان، ط1، 2001م.

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأَةِ والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

المحتويات

الإهداء 6

الفصل الأول 8

ما قبل كربلاء 8

الفصل الثاني 91

وقعة كربلاء 91

الفصل الثالث 215

مسيرة السبي الزينبي 215

المصادر والمراجع 263

صرخة الطَّف

تعرض قصة واقعة الطف سنة ٦١ هـ بشكل درامي مشوق مبينة الظروف الموضوعية التي أدت لقيام تلك الثورة الخالدة، راصدة جميع أحداث المأساة بدقة وما رافقها من أشعار حماسية وخطب ورسائل كان يرددها الحسين وأصحابه أثناء نهضتهم المباركة في مواجهتهم مع الجيش الأموي، وما جرى عليهم بعد المعركة في مسيرة السبي الزينبي إلى الكوفة والشام والعودة إلى بلاد جدهم في المدينة المنورة، مستلهمة من كتب التاريخ والمقاتل المعتبرة تلك التفاصيل المثيرة، التي يمكن أن نستلهم منها دروس التضحية والفداء في سبيل نصرة المبادئ والدين القويم.

ناجي جمعة روائي وناقد بحريني، حاصل على الماجستير في الأدب العربي الحديث، معلم متقاعد منذ عام ٢٠١٨م، عضو في أسرة الأدباء والكتاب، عضو في سرديات البحرين، صديق ملتقى القصة البحرينية، مؤلفاته الروائية: ساعة سقوط الوردة، أفاعي الشيطان، التَّبغ الكوبي، كسوف الأندلس، مزامير أوال، صرخة الطَّف، له مجموعة قصصية: سكرة الرُّوح، دراسة نقدية: الحوار في الرواية البحرينية المعاصرة، كتاب سيرة: الياس.